
تجليات أدبية
ميريت
رواية
أقنعة الصحراء
فتحى إمبابى



(أقنعة الصحراء)

روايـــة: فتحى امبابي

إهـــداء

إلى الشرفـاء حين يكون الشرف مسئولية...
إلى الذين لم ينهشون بأنيابهم بشهية لحم أطفالنا الغض وينهشوا ومعه مستقبلنا...

فتحي إمبابي

الجزء الأول

الخيانـــــة

- 1 -

على السطح الغامض لبحر الرمال الملتهب، لصحراء تمتد فيها نهايات الأرض والبشر، سار الفتى الجريح ينشد طريقه بين غابات من نجوم المجرات، يحث السير هربا مما لا يطيقه، ذاك الذي لا يدركه أو يعيه، يهذي عله يهتدى إلى حدود ما، وفي يده ثمة بوصلة صغيرة خربة ظل يتبعها طوال الليل هربا من السقوط في متاهات الدوائر المبهمة، لجحيم العصر الجديد الذي أوقده ببراعة رجال الالتباسات.

منذ غادر الكوفة إلى النجف يخترق الصحراء بحثا عن المنطقة المحايدة الواقعة بين العراق والسعودية، والألم سياط من العذاب، البرد والزمهرير، الرمضاء والنار، عندما بلغها سقط يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط ألاف جثث المحاربين والمدنيين الفارين من سطوة الانتصارات المخيبة للآمال، ورغم الهزيمة السريعة والمزرية التي نالت من كل الزعماء الديكتاتورين المثيرين للرعب أمام شعوبهم، واحدا تلو الواحد، فقد بقى رعبهم كامن في الأعماق متمكنا من الشعوب الضحايا بعمق التاريخ الذي تشكلوا معه ومنه.

عواء الرياح، العواصف الرملية، الخيالات المتشكلة من طواحين الرمال الصاعدة في دوائر إلى السماء تتحرك كجنيات أسطورية تبحث

عمن أيقظها من إغْفَائها القديم، تنفض الغبار عن أجسادها، تزيح ذرات الرمال عن جفونها، تنفسه في الهواء تيبث في الفضاء جحيما من الصهد المكحل بالظلام العاصف، والرمال تبتلع في طريقها سلعوات الصحراء وتعرى غيلانها ومردتها الساكنين بين الموت والموات، تتلوى على وجه البسيطة تطوى كل شئ كثعبان يمتد حتى الأفق.

وعلى الجبهة التي قتل فيها الرجال الصناديد والفرسان المغاوير قبل أن يرفعوا سيوفهم، قبل أن يشكوا جنبات خيولهم بمشكاة التقدم للأمام والحث بالهجوم فح صمت حزين يطوى السهول والصحراء، صمت من التساؤل عن بقايا الحرب ومخلفاتها، المدرعات المهجورة، آلاف من قطع الأسلحة الصغيرة والرشاشات المتناثرة بين الجثث الملقاة في كل مكان، تقبض عليها أذرع وسواعد محطمة، قطع المدفعية المنكفئة بالخزى والعار، تطل أحذية الجنود وأشلاؤهم المدمرة تطويها ذرات الرمال تحكي انكفاء العقل أمام الحقائق المفزعة.

* * * *

والنجوم تضحك في سماء الحزن، تموت وتحيا طبقا لقوانين مجهولة سنتها قواعد كونية، كشفت رمال الصحراء عن وهج بوصلة محطمة، يقبض عليها بين عشرات الجثث كف ملطخ بالدم، ينبض المؤشر، تستجيب أنامل دقيقة ليد لم تعرف العمل اليدوى، تهتز اهتزازات بطيئة، يفتح الفتى الملقى على الأرض عينيه بصعوبة وهو في حالة من الإنهاك التام، ينظر قرص الشمس الذهبى، كأنه حلم ينتظره، يقبض على عقله، يمسك بعيون تنعكس عليها روح العالم، يبعد عينيه عن الوهج، وقد أسرته أحلام الشباب الغض، فجأة يهتز مؤشر البوصلة بشدة، تزلزل الأرض زلزالها، تعبره أسْرابٌ المدرعات الأمريكية كفيالق الخيالة الرومانية القديمة، تهتز الأرض والفلك والأشياء، يقطع صلبها اللامع سلاسل الضوء لينفرط عقد أحلامه،

لكن وجه الشمس يبقى في السماء قليلا قبل أن تأتى جماعات المارينز مجهزون بشتى أنواع الأسلحة الحديثة، يعوى الفتى بعذاب مرير، يسقط في بئر الإنهاك ثانية وهو المطارد مئات السنين بزبانية هربت من جهنم لتشن عقابها و انتقامها الأسطورى على الطفولة وصبوة الفتوة ؛ تشاهد الآلهة المصير المعذب لملائكة البراءة ولا تفعل شيئا، من يهتم بأرض نكح الآباء فيها أطفالهم...

من مؤخرة وحدة قطاع الاستخبارات الذكية الأمريكية، تقفز بلورة خضراء تشع كالفيروز، تسقط بالضبط بجوار الفتى وهي تنفث بالغضب، تتابع بأجهزتها الشديدة الحساسة عمليات تتوهج داخل لا وعيه الخاص أثارت حنقها، من يجرؤ على الحلم ثانية في منطقة الشرق الأدنى، صرخت وهي تسجل أضواء هامسة في عقله الباطن: اللعنة.

من قلب الشفق برز فرسان من الزمن السادر في قدمه، عمالقة تخب خيولهم كعماليق الصحراء، يلوحون بسيوفهم كالحلم المخصب بدماء فض البكارة الذي تجتمع حوله القبيلة في اختبارات الذكورة، يشتبكون في معارك الالتباسات المقيتة مع المدرعات الأمريكية خطوط الدفاع الأخيرة عن الأرض العربية.

في امتدادات البيداء وقف سيد الالتباسات المهيب في عقاله وعباءة حربه على جواده الأسود شاهرا سيفه، خلف نظارته الأمريكية السوداء، مستبدلا سيف العرب القدماء ببندقية أمريكية الطراز، يلوح بها في عروضه العسكرية، مخرجا من دلالات اللغة الميتة فرسان العرب القدامى.

من قلب الشفق الدامى ينهضون ويصطفوا وراءه؛ أمرؤ القيس، عمرو بن كلثوم، طرفة بن العبد، عنترة العبسي، لبيد ابن أبي ربيعة العامري، ابن الوليد و أبن أبى وقاص، أبطال أحضرهم من ماضى

الفتوحات العربية، ذاك الذي تنتشر صوره على امتداد شوارع المدينة المكللة بالموت.

يرفع الفتى جثته ليشاهد المعركة التي تدور بين تاريخ تبثه دعاية سيد الالتباسات، ديكتاتور القمع الوحشي المدنس بشهوة التنكيل، وبين أسلحة الحرب الحديثة. قطعة الفيروز الخضراء التفت حول نفسها في كرة صغيرة وهي تعلن أنها بريئة من دمه. صعدت التل تبحث عمن يلتقطها.

على صفحة الصحراء سحقت جنازير الدبابات الأمريكية أوصال مردة شقوا طريق العرب والمسلمين إلى الهند والسند وبلغوا تخوم الصين، حولتهم إلى قطع من اللحم الدامى الشهي للعقبان والغربان والدود وحشرات الأرض المقيتة، رفع أشباح الأبطال سيوفهم في الفضاء بحثا عن الأعداء فلم يجدوا سوى قذائف حرب حديثة، ذاتية الحركة تعمل بما غذيت به من معلومات، تحولهم أشلاء مخضبة بالحزن والمرارة والتساؤل المهين، من أين جاءت الالتباسات الوقحة، ومن باعنا للمهانة والانحطاط المهين، كي يخلف لأطفالنا الصمت ومستقبل من الظلام.

تعود الصحراء تطوى جثث المحاربين ماتوا بلا عزاء، ولن يذكر عنهم التاريخ سوى زمن الهزائم والتآكل... في سبيل واحدة من المعارك الوهمية التي باعها من تحدثوا طويلا عن زمن الانتصارات القديم ورفعوا فوق خيولهم رايات القومية والحرية والوحدة والاشتراكية ثم حولوا أوطانهم إلى سجون وجمهوريات وراثية.

* * * *

- 2 -

سكن مؤشر البوصلة أخيرا وفاحت رائحة الصمت بين مئات الجثث المدفونة في رمال الصحراء، وعاد الفتى لغيبوبة موته، ومن بعيد حملت الرياح أصوات رجال تمرسوا التنقيب بين الجثث بحثا عن الأحياء، يتحرك المؤشر ثانية قبل أن يعود لثباته العميق. بين مئات الجثث سار بحرص شديد شاب لبنانى بجوار رجل فلسطينى عجوز من جماعات الصليب الأحمر يبحثون عن أحياء ربما لا يزالون يتنفسون أنفاسهم الأخيرة. يقطع الصمت الجليل صوت لبنانى اللهجة. تتنبه بلورة الفيروز، تتابع بملل الحوار الدائر بالعربية بين رجلين.

- الله يجازى اللى كان السبب؟

- يا أخى طب لعلى شوكان السبب

كنا بلبنان نتقاتل، مرة على خانة الدين ومرة على خانة الأيديولوجيا، وصفت في الأخر كيف ما بده الأسد طائفية، أديش صار في قتل، لكن ما رأيت في متل هاديك الأيام كيف صار اللى بيصير اليوم.

- إذا الأخ الأكبر يأكل حق أخوه الصغير أيش لون تصير رابطة الدم؟

- نعم... الله يجازى اللى كان السبب

على مبعدة مائة وثلاثين مترا لمحت شابة فرنسية في السادسة عشرة من العمر -بتعجب- حركة عابرة بين الجثث الملقاة للنسيان والدود، تلك الأنامل الدقيقة وبوصلتها الصغيرة الخربة، توقفت على الفور، جذبت من القبضة البوصلة بصعوبة ونظرت متعجبة حيث المؤشر يشير بإصرار ناحية الغرب. هزتها برعونة دون أن يستقيم المؤشر إلى الشمال، هتفت بضجر: بوصلة خردة.

في تلك اللحظة لمحت في أطراف الفتى ما يشى بوجود الحياة، أصيبت بالهلع، نادت بلغة عربية مكسرة:

- إلياس... أبو كريم ... كلام ... كلام ... كلام، نادى القاعدة وأطلب المساعدة.

انكب إلياس على جهاز اللاسلكي يطلب المساعدة، وانحت هي والرجل العجوز على جثة الفتى تقلبها هتفت جزعة وهي تحدق في وجهه مفتونة بوجهه:

- OH MY GOD WHAT ABUTY?

تحسست الجسد العارى بينما كرة الفيروز البلورية تتابعها في دهشة وهي تبحث عن موضع الإصابة كي تضمد جراحه، أمسكت بجهاز اللاسلكي الخاص بها، صرخت بوجع حقيقى:

- داد... شيء مروع احتاج إليك، أرجوك أرسل لى مساعدة عاجلة.

ابتسمت البلورة وغمغمت: يال الضعف الفرنسى!

ثمة سيارة لاند روفر قادمة، صفقت البلورة بيدين صغيرتين لا تتجاوز قرنى برغوث:

- الصليب الأحمر! طريقنا لأرض الوطن.

تعلقت الكرة البلورية بمؤخرة اللاند روفر وهي تنفض الغبار الذي علق بها، غمغمت: أحتاج مصدر للطاقة. اللعنة.

انطلقت اللاند روفر على خط الأفق باتجاه معسكر الصليب الأحمر المقام بالمنطقة المحايدة، عند منطقة الحدود المشتركة لم يعترضهم أحد، عبروا كما تعودوا بدون تفتيش بدون رقابة، بدون التنقيب عن أوراق الهوية وجوازات السفر، فليس ثمة جدوى عندما يتعلق الأمر بجرحى بلا توقف وقتلى بلا نهاية.

في طريقها إلى المعسكر عبرت اللاند روفر منطقة الجبانات التي حوت مجموعات القتلى التي تنتمي للجيوش العربية المتحاربة، أما جنسيات الجيوش الأخرى فلم تكن تبقى لحظة واحدة لتدفن في صحراء مجهولة، بل كانت تحمل بجلال إلى بلدانها ملفوفة في أعلام أوطانها.

وراء منطقة الجبانات ظهر معسكر ضخم حديث للصليب الأحمر مكون من مجموعة من اللوريات المجهزة بتجهيزات خاصة لوحدات طبية، غرف عمليات، غرف إنعاش، وحدات معامل، مناطق إعاشة وخدمات، وقد تم تجميعها على هيئة عنابر من مربعات ومستطيلات.

اندفع طاقم الطوارئ بالمريض على عربة ذات عجلات، بتقدمهم إلياس إلى غرفة الاستقبال حيث استقبلهم عدد من الأطباء، ووراءهم كانت الفتاة الفرنسية تجرى مسرعة تنادى أبيها أن يأتى إليها

في مؤخرة العربة الطبية تعلقت كرة البلور غير مهتمة بما يحدث حولها، شرعت تتجول في المخيم تبحث عن مصدر الطاقة، أسرع الأطباء بإجراء الإسعافات الأولية، ومد الفتى بالمحاليل اللازمة، وعندما بدا أنه يفقد نبضه تماما قفزت مساعدة طبيبة بولندية تدعى ربيكا فوقه تستخدم جهاز الصدمات الكهربائية، المرة الأولى والثانية هرب الدم من وجه الفتاة الفرنسية، في المرة الثالثة استعاد المريض النبض مع ابتسامة عميقة على الوجه الذي أنقذه من الموت، لاحظت

حبيبة الطبيبة الجزائرية ومساعدة رئيس المعسكر تلك الابتسامة المريحة التي خيمت على وجه ليلى، الفتاة الفرنسية وأبنه مدير المعسكر.

خيم الظلام وغط الفتى في النوم، وغادر الجميع غرفة الإسعاف، وفي منتصف الليل تسلم النوبة الجديدة طاقم جديد لم ينتبه لوجود مريض في غرفة الاستقبال التي لا يترك بها مرضى عادة، ربما لهذا لم يلاحظ جهاز النبضات وهو يتوقف عن العمل ولا حالة الموت الإكلينيكي التي لم بكن من المحتمل أنها تعبر عن موت حقيقى، أم مجرد عطل في جهاز لم يلاحظه أحد، أو أن كرة البلور تلاعبت بأسلاكه، ولم يكن أحد ليهتم عندما قامت وردية الصباح بإخراج العربة المتحركة من غرفة الاستقبال على عجل لعنبر الجرحى على عجل ، والتي باتت تحمل جسدين بدلا من واحد، خوفا من اكتشاف مدير المستشفي بقاء مرضى في الاستقبال، الأمر الممنوع حدوثه.

المفاجأة كانت من نصيب كرة البلور كيف تخلق الشبيه؟ لا أحد يعرف، وما قيمة فتى يموت في صحراء الربع الخالى، صرخت... خراء. ولم يسمعها أحد من طاقم عنبر الجرحى الصباحى، وبعد قيام طاقم التمريض بتوزيع طعام الإفطار في السادسة صباحا ظهر إلياس قادما من أول العنبر وخلفه أبو كريم يجمعان بيانات الجرحى الذين أتوا في الليلة السابقة، منهم النائم على فراشه والممدد على الأرض، وكل منهم يقوم بعمله بآلية وتكرار ممل من كثرة ما فعلوه، يبحث ألياس في جيوب الجرحى عن بطاقات الهوية والبطاقات العسكرية وجوازات السفر، بينما يسجلها أبو كريم في دفتر يحمله؛ الأسماء والجنسيات، أرقام الهويات البطاقات عناوين الأهل أن وجدت.

في أخر العنبر اقتربا من فراش ذلك الذي أُحضر منذ قليل من غرفة الاستقبال، لمحا الجسدين الشابين الممددين متصالبين، أحدهما

ممددا على ظهره محترق الوجه تماما، والثانى ممددا تدلى بنصفه العلوى من الفراش، وقد نكست رأسه إلى الأرض.

كان الاثنان متماثلان في الحجم والشكل، أحد الوجهين شوهته الحرب تماما تلاشت ملامحه، بينما الأخر شاحب الوجه غائر العينين أشعث غزير الشعر، قد نبت شعر ذقنه الكثيف، عارى الصدر لا يرتدى سوى سروال الحرب الكاكي. وقد بدا مثل مسيح مصلوب أو جيفارا ملقى في غابات بوليفيا بدون إبهامه المخزون في دوائر المخابرات المركزية.

- أبو كريم... عقلى بده يطير

- آيه بلى, أنا اللى عقلى طار بالفعل إلياس.

عدل إلياس و أبو كريم الجسدين فبدا تو ائمين، صورة لشخص واحد، لا تخفي تشوهات أحد الوجهين انسحاب الحياة من الوجه الأخر... حدق فيهما إلياس بدهشة، أشار أبو كريم بذهول إلى الرجل ذو الوجه السليم مندهشا وهتف:

- مو هذا اللى أحضرناه بالبارحة؟ كيف صار اثنين.

إلياس: معقولة ها الحكي؟!!

- خيوا شو ها العجب فولة و انقسمت نصين، بس أمتى ووين؟

بحث إلياس في ملابس الجسد المشوه عن بطاقة الهوية أو جواز سفر، رخصة قيادة، بينما شرع أبو كريم في البحث عنها في ملابس السليم، أخرج إلياس بطاقة هوية من ملابس المشوه، قرأ إلياس: أكتب أبو كريم، الاسم... ما إله أسم... العمر مشطوب عليه، محل الإقامة... ما ادرى شنو... الجنسية مغمورة بالدم... الله كريم ما بقدر أتعرف عليها، ايش صار مع اللى معك؟

- أخى العمـ!! والله نفس الشيء.

على باب العنبر ظهرت ليلي وانحت تضمد جراح أحد الجرحى، نادى أبو كريم على رجل يبدو رئيس المكان: هاى مسيو سيزار معانا واحد بيموت. وأشار إلى الفتى السليم الوجه: اللى معى ما معه شيء... اللى معى ما فيه نفس خلاص راحت منه الروح.

جلست الكرة البلورية على حافة الفراش، أدلت قدمين دقيقتين في حجم أقدام البرغوث، تابعت ليلى وهي تجرى وابتسامة السخرية على وجهها، غمغمت بلورة الفيروز بملل: مراهقة فرنسية في حاجة لقضاء ليلة ساخنة في فراش بلاك مان.

انحنت ليلى على الفتى وشرعت في عمل الإسعافات الضرورية، أتى ناحيتهما جريا ربيكا ومانويلا الإيطالية، هذه المرة قفز هان الصينى بجهاز الصدمات وبعد محاولات عديدة استرد الفتى الحياة. دون أن تذهب عنه غيبوبته. في ذات الوقت أهتز الأخر ذو الوجه المشوه فجأة ليموت، وكأنه يتنازل له عن حياته عله يعيش.

صرخت ليلي: يا ربى

استدار سيزار إلى الشبيه، يبحث عن نبضه، هز رأسه مؤكدا موته، لم يلبث أن أشار إلى الرجال كي يتولون نقله إلى الساحة الخارجية.

* * * *

والغروب يخيم على الصحراء وقف عدد من رجال الصليب الأحمر يحملون جثة الشبيه إلى الخارج، عبروا مقابر الجنود العرب الذين شاركوا في حرب الخليج من الجانبين وقد قسمت طبقا لجنسياتها، تظللها أعلام الدول لعربية التي شاركت في الحرب تميز جنسيات القتلى في مشهد جنائزى مهيب، يشقها الطريق الواصل إلى مدخل المعسكر وكأن الحرب التي فرقتهم أضعف من الموت الذي جمعهم.

كانت أغلبية المقابر قد تجمعت تحت العلم العراقى، تلتها مجموعة من المقابر تحت العلم المصرى ومجموعة أخرى تحت العلم السورى ثم العلم الكويتى ثم جماعات صغيرة للغاية تحت الأعلام السعودية والإماراتية والخليجية الأخرى.

نظرت بلورة الفيروز إلى مقابر القتلى العرب بازدراء. وصاحت ثانية بقرف:

- خراء... يجب أن أجد طريقة للخروج من هذا المستنقع والعودة إلى مركز الاختبارات في صحراء نيفادا. ولكن كيف؟ ... لم تنتظر عودتهم، عادت للعنبر، وفي الخارج تساءل إلياس:

- لوين بدنا نحطه؟

- أجاب أبو كريم: أتطلع على جنسيته.

- مجهولة يا أخى؟

- خلاص بدنا نحطه مع جماعة الجندى المجهول.

- وإذا كان بيصير مدنى؟

- عسكرى مدنى ما تفرق بالموت، والله كلتنا علقنا باها الحرب.

توجه الرجلان لمنطقة الجندى المجهول وصفت الجثة بعناية وسط الجثث تحت علم جامعة الدول العربية

* * * *

- 3 -

في عنبر المرضى ذوى الإصابات الخطرة تمدد أربعة من الجرحى على فراشهم. فهد ضابط كويتى مصاب بحرق جانبى للوجه والجسد، بترت ساقيه نتيجة قصف لصاروخ عراقى، أبو الجاسم مساعد بالجيش العراقى انتشل من بين الذين تبقوا من مذبحة الخنادق بعد أن سحقت ساقيه مجنزرة من طراز M 70 الخفيفة، كان ينتظر إجراء عملية جراحية لبتر الساقين نتيجة تسمم دموى، على الفراش المواجه نام محمد آدم جندى مصرى، وقد أصيب بجرح عميق لرصاصة سكنت بجوار القلب، وضعت ساقه في الجبس، بجواره مروان جندى سورى اختفي وجهه خلف عصابة من الضمادات، بعد أن انفجر فيه لغم أرضى، كان جميعهم في حالة مزرية عندما ضم لهم الفتى القادم من الموت.

تأوه ابو الجاسم بصوت خافت: شربة مية... شربة مية يا أخى

صاح آدم: يا خلق هوه... حد يرد عليه، الراحل عايز مية.

صاح فهد على آدم: عليش تعطيه ميه، هادا ما يستحق.

نظر أدم إلى فهد بشفقة، بينما صرخ مروان من الألم: أةةةةةةةةةة

قفز آدم من سريره وذهب إلى الشاب السورى يحاول أن يخفف عنه، دخلت إلى العنبر الطبيبة الجز ائرية دكتورة حبيبة، بدت في نهاية العشرينيات، هالات سوداء تحيط بعيون تنتمى في جذورها لحور البربر، بجوارها سارت الفتاة الفرنسية ومجموعة طاقم مساعدى الأطباء يحملون عقاقير وأدوات العلاج، على حين عكفت كل ممرضة تمرض أحد الجرحى، توجهت حبيبة مباشرة نحو آدم، أخذته لفراشه وهي تعاتبه: ما تترك فراشك؟

أشار لأبو الجاسم: تعبان قوى... عايز يشرب مية.

- شوية صبر، أقعد أنت وإحنا ح نعمل لهم اللى بدهم إياه، رانى أشوف جرحك.

تحركت ربيكا باتجاه أبو الجاسم تحمل زجاجة من المياه المعدنية، قفز الضابط الكويتى الشاب يعترضها، خطف زجاجة المياه وأخذ يفرغها على الأرض، ثم ألقى بها وهو يصرخ بهستريا: هذا سبب كل المصايب والبلاوى، ما يستحق الشفقة.

نظر الجندى العراقى ناحية فهد بهلع، اندفع عدد من الممرضات والممرضين لتهدئة فهد تتقدمهم الطبيبة الجز ائرية حبيبة، أحاطوا به يحدثونه بلطف لحظتها انخرط في البكاء وحين هدأ همس حزينا: اعذرونى يا أخوان... شردوا أهلى وقتلوا عيلتى، مات اللى مات وما عاد يعود.

عادت حبيبة لآدم، تكشف عن جرحه الغائر وقد عاد للنزيف، قالت بغضب: أنا قلت لك ما تترك مكانك... الجرح فتح... إلياس تعال بسرعة. استطردت تخاطب الفتاة الفرنسية: ليلى خليكي أنت مع المصاب تبعك.

- وحدى!؟

- ما بيعض ليلى؟

- لسة معرفش حبيبة.

ابتسمت بلورة الفيروز ساخرة وهي تهز شاقيها البرغوثتين: مراهقة ورومانسية فجة، إلى الجحيم أيتها الفرنسيات، ومن فوره انتبه الفتى الملقى على الفراش لأسم الفتاة الفرنسية. أنحنى برأسه يتابع من أسفل الفراش الفتاة الصغيرة السن وهي تغادر العنبر وتختفي وراء الباب الدوار، وعندما خرجت سمع الطبيبة الجز ائرية تناديها: ليلى... ليلى.

أصغى لرنين أسمها في إذنيه، وعندما اقتربت منه حبيبة سمعته يردد اسم الفتاة الفرنسية بصوت خافت: ليلى... ليلى...

انتبه الفتى فجأة لأبو كريم يحاول حقنه في ذراعه، جذب ذراعه بعنف وهو يكاد يطيح بالرجل العجوز أرضا، ثم عاد كالبلهاء يخفض رأسه أسفل الفراش ينظر إلى حيث اختفت الفتاة مرددا اسمها وكأنه يدعوها: ليلى... ليلى...

فإذا الباب ينفتح عنها وقد ملأته مثل حلم، حدق بها مذهولا يتابعها وهي تتجه نحوه مباشرة، افتر وجه عن ابتسامة طفل وصوته يرتفع باسمها.

ووقفت بجواره وخلفها أبو كريم حاملا صينية عليها الدواء، عكفت ليلي على قراءة التقرير الطبى الخاص به. نظر الفتى لأبو كريم شزرا يتابعه وهو يحضر حقنة مقويات جديدة، حدق في كل منهم؛ الرجل العجوز والحقنة كأنهما الشيطان، حاول أبو كريم أن يكشف عن ساعد الفتى كي يعطيه الحقنة، لكنه دفع أبو كريم ثانية ونهض في عصبية، وهو يصرخ في وجهه: أبتعد عنى أيها الشيطان.

انتبهت ليلي، وتركت حبيبة أدم وأسرعت ناحية الفتى، نظر المرضى الأربعة ناحية الصوت الهادر، وأشار آدم بيده أن الفتى مجنون، حاول أبو كريم إيقافه قبل أن يفعل شيء يندم عليه الجميع لكن الفتى

أطاح بصينية الدواء أثناء قيامه وصرخ في الرجل العجوز: سم؟! أتريدون قتلى بالسم؟ لعنة الله عليكم يا أشرار.

حاول إلياس أن يمسك به لكنه قفز جريا مغادرا العنبر، وكأنه يفر من الجحيم، صرخ ابو كريم: ها الشب بده يفل.

عقبت حبيبة: ألحقه أبو كريم ما تسيبه يهرب.

ليلي: أوه OH NO.

لم تمض دقائق حتى كان الفتى يسير في سروال الكاكي وقميص مفتوح يكشف عن صدره، بخطوات سريعة باتجاه الفلا، إلى حيث ينتصب تل عال تحيط به هضاب ومغارات متناثرة، بينما ليلي وحبيبة تجدان السير خلفه بنشاط حاد، وبعد نصف الساعة كان الفتى يذرع الصحراء سيرا على الأقدام وحده، بينما ليلي وحبيبة على مبعدة كيلومتر تتابعانه بجزع وخوف دون أن يفتر حماسهن.

من بعيد كان أبو كريم يجد السير خلف الثلاثة وقد شق عليه سنه، سمعت حبيبة رفيقتها تغمغم وفي صوتها رنة شفقة أثارت لديها غيظ شديد:

- مسكين ح يروح فين؟

- والله أنت اللى مسكينة، لو تركناه بيرجع.

تنهدت ليلى لقسوة صاحبتها، حدثتها: حبيبة... لم أنت قاسية القلب؟

انطوت الشابة على نفسها ودمدمت في غضب وهي تعنى كل من الفتى وليلي:

- أشكال الجنون كثيرة.

أجابت ليلي بغضب صبيانى وقد فهمت إشارتها مما أثار عجب حبيبة:

- أنسة هبيبة... أتعتبرين العناية بالمرضى جنون؟

- ليلي أرجوك لا تبدئى، الحقيقة أنا عاجزة عن فهمك؟

- ليست مشكلتى...

دمدمت حبيبة بأسى: معك حق، حتى أنا لا أفهم نفسى.

من بعيد ظهرت بلورة الفيروز تحاول التخلص من الرمال التي انهالت عليها من كل جانب وهي تتابع الفتى وهو يصعد قمة التل، لمحته يستدير محدثا الصحراء غير مصدقة:

- أى مشهد سنرى؟

* * * *

كان الغروب يسقط لونه الأرجوانى على الصحراء، وأمامهن وقف على ظهر ربوة عالية بشعره المسدل الكثيف تدفعه نسمات الهواء إلى الخلف وخصلاته تتساقط على جبينه، وقد مد إحدى ذراعيه يخاطبهن من علو، بدى بجسده النصف عارى إله أسطورى، أوقفهن بإشارة من يده في أسفل الربوة، وقفتا تنظرانه بأعلى الربوة وخلفه السماء، بدا المشهد لهن مريعا، وخاصة تلك المغارة التي فتحت فوهتها مثل جنيات الصحراء الغامضة، تهيئن لكل شيء ممكن الحدوث، عندما بدأ الفتى حديثه للفتاة الفرنسية لا يرى سواها.

تلوح ليلى كنجم في السرى ولا أراها

حلم تراءى للمعذب في هواها

شعرت الفتاة بأن الحديث موجها إليها، رأت حبيبة تتنهد في حزن وخيبة سألتها: ما الذي يقوله؟

ترجمت لها حبيبة ما قاله الفتى، شهقت الفتاة من داخلها، التمعت عيناها ثم وعلى حين غرة تقدمت نحوه، قبلته، ثم أمسكت يده تعود به إلى المحيم، قالت بعربية مكسرة: تعال أرجع معى عشان تاخد الدوا.

مد الفتى صدره للأمام ثم هتف يعاتب الصحراء:

تعطنى ليلى السم الزعاف بلسم

يقتل جريحا في الهوى ويشفي للقلب علة

نظرت ليلي لحبيبة باندهاش وتساؤل: ما الذي يقصده؟

شرحت لها حبيبة ما يقوله واستطردت بملل: يبدو أنه يظنك ليلى؟

قالت ليلى: ولكنى أنا بالفعل ليلى. ومن أكون؟

قفزت البلورة مليمترات عن سطح الأرض تحاول أن تشير لحبيبة بأن تمتنع عن التفسير بإشارات عديدة لكن حبيبة لم تكن لتراها لفرط ضآلتها،

- يقصد ليلى أخرى.

- ليلى من؟ ومن هو؟ هل تعرفيه؟

هزت حبيبة كتفيها نفيا: وما الذي يجعلنى اعرفه! ومن يعرف للمجانين ادعاءاتهم؟

بخيلاء وحزن مد الفتى صدره إلى الأمام، ملئه بالهواء ثم شرع في جلال يناجى الصحراء:

تنكرنى ليلى وأنا المجنون في هواها

هذه الفلا هذه الكواسر تعرفنى

أنا المتيم في هواها

فتحت الفتاة عينيها على سعتها وهي تسمع حبيبة تحكي لها، تنهدت وزفرت زفرة حارة، ثم استراحت على ابتسامة ملئت جسدها الغض تتنفس كل ما يقوله الفتى عنها، دارت حول نفسها غير مصدقة وهي تهتف:

- MY God ...   مستحيل...

عندما وصل أبو كريم المكان كان يلهث من التعب، صاح بالفتى: تعبتنا الله لا يسئ لك. هلئ إذا كانت هي ليلى و أنت المجنون بيصير نعرف أسمك يا سيد قيس.

* * * *

خلف الفتى امتدت سماء الصحراء صافية، ومن الأفق ظهرت طائرة صغيرة يسبقها صوتها، اقتربت منهم كانت منخفضة حتى بات يمكن مشاهدة ركابها.

* * * *

- 4 -

على مهبط صغير مهدته قوات التحالف لصالح الصليب الأحمر، جلس إلياس أمام مقود الجيب على المهبط يتابع هبوط طائرة ركاب صغيرة، وقفت الطائرة أمامه، فتح باب الطائرة وسقط سلم صغير ونزل شاب في مطلع الثلاثين، لوح له إلياس وهو يقفز من السيارة متوجها نحوه، طوح الشاب بحقيبته في السيارة الجيب وقفز على المقعد المجاور، استقبله إلياس مرحبا وهو يتحرك باتجاه المعسكر: دكتور مصطفي الدمنهوري؟

أجاب الشاب بالإيجاب: نعم.

- مرحبا دكتور بتتفضل معى إذ بتسمح.

- أنا معك بالفعل.

- مصرى مو هيك؟

- أيوة

- واضحة لهجتكم يا مصرين...

- لبنانى... سورى؟

- لبنانى...

- اللبنانية شعب صاحب أصول. يعرف البرتوكول على أصوله.

- شكرا يا دكتور، المصرية هم اللى اخترعوا الأصول.

- أشكرك و أنا معك.

* * * *

جلس سيزار يتصدر مكتب مدير المعسكر وقد اختفي خلف عدد من أجهزة كمبيوتر والتلكس، وبجواره كانت ثمة محطة لاسلكي صغيرة متصلة بقمر صناعى أوربى. بينما انهمكت بلورة الفيروز في مؤخرة الوحدة تبحث عن مدخل تستطيع التسلل منه للداخل كي تؤمن اتصال بواحدة من قواعد المخابرات الذكية في إسطانبول أو هامبورج.

أمام سيزار جلست حبيبة وبجوارها وقفت ليلي وهي تسرد لمندوب الهلال الأحمر الكويتى أسماء الجرحى الذين تقرر نقلهم إلى الكويت بعد حدوث تحسن ملحوظ في صحتهم.

ليلي: يمكنك نقل تسعة أفراد؟

قاطعتها حبيبة: لا ليلي فقط ثمانية.

نظرت ليلي لحبيبة، استطرت حبيبة: احذرى أن يكون فهد في القائمة؟

تدخل مندوب الهلال الأحمر الكويتى بحدة: فهد الزويدى نعم أهله مشتاقين إله وبدهم إياه.

أجابت حبيبة بحزم: مشتاقين وبدهم إياه، لكن نقله في الظروف دى مستحيل.

- شنو ظروف؟

- أصابته خطرة جدا، وممكن تحصل له مضاعفات أثناء نقله، تتحمل مسئوليته؟

أكد سيزار كلام حبيبة: وحتى لو أخذ على عاتقه المسئولية، هذا قرار طبي، لابد من الانتظار قليلا.

استسلم المندوب الكويتى. حياهم في يأس مقررا الرحيل: يلا بخاطركم.

على الباب أصطدم بإلياس، سمعه يقدم لسيزار شخص يقف خلفه: دكتور مصطفي الدمنهورى الطبيب اللى بده يعتنى بالنفسية.

وقف المندوب الكويتى فجأة وعاد متسائلا: ها الفتى أبو تميمة اللى يقول على نفسه قيس، بدنا ناخده.

أطلت من خلف الجهاز الكرة البلورية مندهشة: من يريد؟ الفتى الحالم.

نظرت تتابع الحضور وهي تسجل تصرفاتهم في مفكرتها الإلكترونية، سمعت سيزار يهمس لليلي يسألها: هل عرفتم جنسيته؟

- أبدا سيزار، مازال يجهل هويته، عنده حالة فقدان الذاكرة.

علق المندوب الكويتى بإصرار هذه المرة: مجهول الهوية كيف؟ إذ كنت بعرفه معرفة شخصية؟

سيزار: تعرفه!! كيف؟

- أيوة بعرفه... كان زميلى معى وقال ها الفتى يسكن بحى السالمية بالبناية اللى تقع قدام أهل زوجته.

غمغمت بلورة الفيروز: الكويتيين! لحظتها زامت بشفتيها باحتقار وعادت للخلف تبحث عن طريقه للاتصال. فلما فشلت حاولت أن تحصل على بعض الطاقة.

ليلي: جميل.

حدق المندوب الكويتى بعيونها وقال: والله الجميلة عيونك ست ليلى.

اعترضته حبيبة بجدية: هو أيضا لا يمكن نقله حاليا.

المندوب الكويتى: ليش دكتورة. مالهم الجز ائريين هيك متشددين؟

- بده شويه ضبط بالعيادة النفسية.

- ما عندكم نفسية.

التفتت حبيبة لأول مرة ناحية الدكتور المصرى وبوجه خال من التعبير: هلئ صار فيه.

نظر المندوب الكويتى للدكتور مصطفي محبطا وقرر بحزم: إذا فيه دكتورونفسية... ما عاد الفتى يخرج من هون.

عندما فشلت الكرة البلورية في التسلل من الخلف عادت للمقدمة تبحث عن مدخل. نظر مصطفي للمندوب الكويتى بغضب وعلى وجه علامات التعجب: ليه يا أخى تفترض البلاء قبل وقوعه، يمكن تكون العملية مجرد قرصين وكل واحد يروح لحاله.

تنهد المندوب الكويتى: قرصين... في الأول تقولوا هيك وبعدين القرصين يجروا آلفين، والألفين يجروا عشرين ألف ومادام الزبون خليجى أنتم في مصر تحلبوه.

ألفين آية وعشرين ألف آبه؟ ده عشرين قرص يموتوه.

- هه، قصدى عشرين ألف دينار دكتور، مو عشرين ألف قرص، ليش أهبل أنا!

ضحك الجميع حتى مصطفي ضحك، طمأنه: لالا... لا إحنا في ظروف حرب يا أخى وصليب أحمر، أنت واخد فكرة وحشة عن المصريين.

- أبدا دا أنا حتى متجوز مصرية.

- تمام المرة الجاية تاخده معاك.

غادر المندوب الكويتى المكان في استسلام، تتطلع سيزار لمصطفي فتقدم إليه قائلا: - مصطفي الدمنهورى.

رحب به سيزار وهو يفتح ملفه، أشار له بالجلوس أمامه على الطاولة، راجع شهادته وتخصصاته في الطب النفسى؛ دكتوراه في التشوهات النفسية لجرحى المعارك. بحثه التطبيقى حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية. وضع سيزار سابقة خبرات مصطفي على مكتبه بعناية لا تخلو من تعب وقدم الطبيب المصرى للحاضرين:

- دكتور مصطفي الدمنهورى، حاصل على دكتوراه في العلوم النفسية لجرحى الحرب، وقد طلبته مفوضية الصليب الأحمر للانضمام للمعسكر.

تطلعت الكرة البلورية بدهشة نحو مصطفي وغمغمت: *Egyptian.* *No.!!* تابعت ما يجرى حولها ثم غمغمت بقرف: ما الذي يمكن أن تفعله، دكتور مصطفى؟ فكرت الكرة قليلا ثم مدت يدها تغلق قرون استشعارها، همست بشفقة وهي تعود للداخل:

- *Nothing. Absolutely nothing.*

ما الذي أفعله وسط هؤلاء المعتوهين، يجب أن أجد وسيلة للمغادرة هذا المكان المثير للغثيان.

نظرت حبيبه إليه بفضول، عقب سيزار قائلا: ممكن تأخذيه في جولة بالمعسكر اطلعيه بشكل مفصل على مهمته قبل أن يستلم عمله بشكل رسمى.

هزت رأسها متقبلة دورها. أدار سيزار رأسه وقال بطريقة حاسمة، وهو يدير رأسه ناحية الطبيب المصرى: سوف تعمل تحت إمرتها.

هز مصطفي رأسه وقال: مفهوم.

قامت حبيبة تغادر المكتب وخلفها تحرك مصطفي تمر به على العنابر والجرحى، عند سرير الفتى الملتاث لاحظ مصطفي وحبيبة الاهتمام الذي توليه الفتاة الفرنسية ليلي للفتى المنهك الضائع بين الوعى واللاوعى، قامت حبيبة بتعريف ليلي ابنة سيزار قائد المعسكر بمصطفى، حيتهم على عجل واستدارت تعتنى بالفتى. عبراها إلى الجنود الأربعة لكن صرخة فزع من ليلي جعلتهم يستديرون فزعا ناحيتها حيث شاهدا الفتى يقبض على ساعد ليلي وقد أفاق ساهم الوجه زائغ النظرات يفتح عينيه يتطلع لوجه ليلي وهو يهتف باسمها: ليلى... ليلى...

نظر كل من في العنبر نحوه في ذعر، وأسرع مصطفي يخلص الفتاة منه فترك ساعدها بسهولة ودون مقاومة، لكن الفتى فاجئهم بالوقوف على الفراش وهو يهتف قائلا:

ويوم دخلت الخدر قالت ويلك أنك قاتلى
فلما مال الغبيط همست
عقرت بعيرى يا امرئ القيس فانزل
قلت لها سيرى وأرخى زمامه
لا تبعديني عن جنانك المعلل
فمثلك حبلى قد طرقت وأخرى مرضع

إذا بكي من خلفها انصرفت له بنصف وحنى نصفها

استمع الجنود إليه وقد انفرجت أفواههم بدهشة وذهول، عندما انتهي انخرطوا في ضحك مكتوم مراعاة للنساء دون جدوى، فقد جاء سؤال الفرنسية لحبيبة عن فحوى أبيات الشعر التي ألقاها الفتى ليفجر ينابيع ضحك مجنون حتى كادت جروحهم تطفر بالدماء، حاولت حبيبة أن تجعلهم يصمتون، ولكن ليلي أبقت على دهشتها وإصرارها على معرفة ما قاله الفتى، سألت العجوز أبو كريم عن فحوى الشعر فهرب من أمامها، سألت إلياس الذي قطر وجهه بالخجل لكنها أصرت فأخبرها عن فحوى ما أنشده الفتى، شعرت ليلي بالقشعريرة تجرى في جسدها وهتفت متسائلة: ما الذي فعله لها حتى أنه شغلها عن طفلها الرضيع... استطردت تسأل إلياس: لحظة إلياس أهكذا يخاطب الفتى العربى الفتاة التي يحب؟

احتار إلياس قليلا: والله شو ما بدرى أخت ليلي، هذا ولد خلبوص.

- يا ألهي.

هتف مصطفى: مجنون.

لكن أبو كريم تدخل برصانة يشرح للفتاة الأمر: هذا الفتى ملبوس بشخصية شاعر عربى يدعى قيس أبن الملوح تارة وأمرئ الفيس تارة، وهذه شخصيات من أساطين الشعر العربى القديم.

هتفت ليلى: ها.

- أيوة مدموازيل ليلى، من فحول الشعراء العرب. هادول عمرهم أكتر من ألف وخمسمائة عام.

- ومين ليلى اللى؟

- أه ليلى اللى يظنك إياها؟

- أيوة... بتعرفها ابو كريم؟

هز أبو كريم رأسه بحنكة مجرب وردد وهو يمسد شواربه: الله مدموازيل ليلى بعرفها كتير...

- أحكي لى عنها أبو كريم.

- هادى عذراء الشعر العربى، هادى متل جوليت وروميو بالأدب تبعكم.

عادت ليلى برأسها للوراء بدهشة: وكيف يشغلها عن طفلها الرضيع وهو يضاجعها في هودج يكاد ينقلب بهم.

احمر وجه أبو كريم واصفر و ابتسمت حبيبة ومصطفي و ابتسم الجنديان مروان و أبو الجاسم وبدت البلاهة على آدم، وقال الجندي العراقي أبو الجاسم:

- هذه مو ليلى هذه أم سلمى.

انتفضت ليلى بغضب وقفت وألقت بكل شيء أمامها وقد أوجعتها الخديعة، نظرت حبيبة لمصطفي بوجوم، فعاد ينظر للطفلة الفرنسية وهي تهاجم أبو كريم:

- وهل كان قيس يخون ليلى...

ضرب أبو كريم رأسه متعجبا وقد أختلط عليه الأمر هو الأخر، تدخل أبو الجاسم بكياسة: ليس قيس أبن الملوح مدموازيل ليلى الذي خان ليلى، هاى شخصية تانية هي امرئ القيس، مبين أن فيه التباس عند الفتى في الشعر.

عقب مصطفى: ربما الالتباس في الشخصية ذاتها.

لمح الجميع الفتى يمسك بساعد ليلى ثانية، نظرت حبيبة لمصطفي بوصفة الطبيب النفسى صاحب الموقف وبدا واضحا له من نظراتها أنها تدعوه للتدخل. حاول مصطفي التدخل بشهامة لصالح الفتاة، محاولا بطريقة قاسية فك ساعد ليلي من قبضة الفتى، فوجئ بليلي تعنفه: ألا ترى أنه مريض؟ دعه يفعل ما يريد.

تراجع مصطفي وقد أحرجته ثورة الفتاة، وبهدوء ترك الفتى ساعد ليلي من ذاته، ثوان وغشى عليه ثانية. أسرع الجميع بعمل الإسعافات الأولية، وأخذت ليلى رأسه بين ذراعيها. تبادلت حبيبة ومصطفي النظرات، وكأنها تخبره بأن لديه من الآن مريضين.

* * * *

- 5 -

منذ الصباح الباكر استعرضت إدارة المركز وطاقم الأطباء؛ في اجتماعها الأسبوعى باستعراض الموقف العام، الفرنسى سيزار، الجزائرية حبيبة، الهندى راجا حسين، الإيطالية مانويلا. الصينى هان. البولندية ربيكا. كان سيزار يأكل أصابعه من الغضب، فقد جاءه اتهام حاد من الهلال الأحمر العراقى بقيام ممثلى الصليب الأحمر باختطاف جندى عراقى من داخل الأراضى العراقية وإخضاعه للاستجواب عن البرنامج النووى العراقى، وأن العراق يحتج على هذا السلوك الشائن، وقد أرفق باحتجاجه طلب تسليم الجندى العراقى فورا.

كان تساؤل الجميع عن العلاقة التي يمكن أن تربط جندى بالبرنامج النووى للعراق، لابد أن خطلا أصاب القيادة العراقية المصابة بالعته وجنون الكبرياء، وهو ما تأكد بالفعل إذ أنه في المطالبات الأسبوعية التالية بقي الاتهام الأول الخاص بالاختطاف، واختفي الجزء الثانى الخاص بالبرنامج النووى. دار الحوار حول حالة المريض ثم تقرر أن يوكل الأمر برمته للطبيب المصرى، على أن يقدم

تقرير عاجل، وبينما كان البعض يتناول أكواب القهوة مال رئيس المركز الذي كان يعمل طبيب سابق بالجيش الفرنسى في الجزائر، يحدث مساعدته حبيبة، بينما ليلى ابنته تسمعه، وهو يعلم اهتمامها الشديد بالمريض: وجهه يذكرني بطبيب عربى لقيته في وهران

- أنت لا تمل من الحديث عن الأيام التي قضيتها في وهران و أنا لا أحب أن أسمع شيئا عن الجزائر.

- ربما يكون ابنه.

تدخلت لبلى مرغمة: داد مستحيل، أرجوك لا تبدأ.

- نفس الملامح.

- وهل تتذكر وجه مضى عليه ثلاثين عاما؟

- كنا قد سقطنا في كمين صنعه رجال جبهة التحرير داخل الحى العربى... انظرى.

كشف سيزار عن جرح غائر في الكتف، واستطرد: لولا وجوده لكنت في عداد الموتى، ولما كنت أنت قد قدمت للدنيا ورأيت النور، لقد استخرج طلقة رشاش استقرت بجوار الشريان التاجى، لو مسه... لا أستطيع أن أنسى وجهه، انه يشبهه تماما، هل اشترك الجزائريين في حرب الخليج.

عقبت حبيبة تنفي وتتهم سيزار أنه كثيرا ما يخلط الأشياء وأن حرب التحرير الجزائرية في ذمة التاريخ الآن ولم يعد في الجزائر سوى القتل المجنون؟

مالت ليلي على مصطفي في الاجتماع تخبره أن حبيبة هي مصابة حرب أيضا، فقد ذبح إرهابيين أسرتها جميعا ولم يبقوا منهم أحد، لم ينقذها سوى وجودها في باريس.

نظر مصطفي وعلى وجهه مشاعر الذعر والصدمة، فيما بعد علم أن حبيها ويدعي عبد الناصر كان ضابط بالبحرية الفلسطينية، التقته بالعاصمة الجز ائرية أثناء تجهيز قوات العاصفة التابعة لفتح لعملية إنزال مجموعات من الفدائين على شواطئ تل أبيب بواسطة زوارق سريعة من سفينة تقف في المياه الدولية يقودها عد الناصر، غرض هجوم على وزارة الدفاع الإسر ائيلية. لكن ما حدث كان مذبحة إذ اعترضتهم البحرية الإسر ائيلية على مسافة ستين كيلومتر من الشاطئ، وقامت على تدمير السفينة وإغر اقها، وإغر اقهم جميعا حيث ضمتهم مياه البحر المتوسط بين ضلوعها العميقة الباردة، وقد تخضب زبد البحر (الذي صُنعت منه فينوس) بالدماء، مخلفة لوعة لا تنتهي في صدور أحبائهم لموكب لا ينتهي من الشهداء.

أما والدها فقد كان من كبار قادة الثورة الجز ائرية الميدانيين، صفي بسبب ميول ديمقراطية أرجعوها لارتباطه بمحامية فرنسية من أصول فلسطينية، وقفت بجوار الثورة وتولت الدفاع عنه أثناء سجنه، و أنقذته هو وثلاثة من زملائه من حبل المشنقة لتتزوجه عن حب عميق... تتذكر يوم أن اعترفت حبيبة لأمها بأن قلبها الصغير وقع أسير بحار فلسطيني التقته على شواطئ العاصمة، وبين البحر والرمال سقطت أسيرة هامته الفارعة وعينيه السوداوتين للآلهة المتوسط تفيضان بحنان عميق، وحب يتسع للكون.

استطردت وهي تغوص برأسها المصنوع من باقة ورود أطلسية في صدر أمها: لا يريد أن يعترف بحبه لي.

- لماذا ابنتي؟

- يحب قضيته أكثر مني.

- أي قضية؟

- مشغولا من قمة رأسه إلى أخمص قدمه في إدارة عملية إنزال على شواطئ الأجداد.

قالت الأم بالفرنسية: هكذا الرجال الشرقيين حمقى من طراز رفيع، أبوك ما كان ليعترف بحبه لي، لولا مطاردتي له.

- طاردتيه! كيف يا أمها؟

قالت إنها لم تتوقف عن زيارته في سجنه المؤبد الذي غادره باستقلال الجزائر. ويوم مغادرته السجن وجدها في انتظاره، وهي ترتدى الكوفية الفلسطينية الشهيرة، وتخبره أن حصول الجزائر على استقلالها هو إيذان ببدء معركة تحرير فلسطين، يوها أجابها مندهشا: من الذي أحدثه فيك الآن؟ الفرنسية أم الفلسطينية.

قالت وهي تضمه إلى نهديها الغلاميين: لا تعترف التروتسكية بالانتماء القومى. وعلى أى حال أنت تحدث الفتاة التي جنت بك منذ اللحظة التي وقعت عيناها عليك؛ التي أحبت فيك أشجار الحور وغابات الصنوبر، والمناضل من أجل الحرية. وكان استسلم في نهاية الأمر.

ضحكت حبيبة بارتياح وصاحت: ها ماما وبعد؟

- كنت أنت ثمرة الحب العميق.

- نعم كنت أنا ثمرة الحب العميق، خليط من الأعراق، شعر أجعد ينتمي لنساء الأمازيجيات وبشرة فلسطينية بيضاء كالحليب، وعيون فرنسية ملونة بالخضرة تحكي عن خليط معذب لم يتسنى له الفرح العميق بالميثاق الذي جمع بين أمها وأبوها. فها هي جبهة تحرير الجزائر التي قادت حرب الاستقلال ودشنت تاريخها بمليون شهيد ضحى بعمره من أجل الوطن تتحول مثلها مثل أى سلطة في تاريخ العرب. دون أن يفهم أحد كيف يمكن أن يتحول مناضلى الأمس إلى قادة يخفون عيونهم خلف النظارات السوداء، دون محاولة لإخفاء

التعطش الدموى للسلطة الكامن في قادة الجيش، فهذا بالتحديد طريق جوهرى لفرض سيطرتهم على القطعان المدنية، وعسير أن تجد ضحية تختفي خلف نظارات سوداء، ولكنها للرغبة العارمة التي تمتلئ بها صدور الطغاة للتميز عن ضحاياهم.

أما تحرير فلسطين، فلا أحد يدرك النتائج المترتبة على التحالف الرجعى والقومى الذي ابتدأ بخروج المقاومة الفلسطينية من الأردن وانتهي بخروجها من لبنان سواء لأسباب تتعلق بسوء حال المقاومة الداخلى، أو لتمكن الرجعية العربية من إزاحة الخطر الذي يهدد وجودها، أو تحقيقا لرغبة القوى القومية البعثية على تعددها في الانفراد بقيادة الثورة العربية حتى ولو كان الضحية حلفائها. كيف تتحرر فلسطين وقد أصبحت المقاومة مثلها مثل شعبها تعيش في الشتات، مقاومة بلا الأرض، وها هو القرن يتوج بحرب الخليج، فطوبى لك يا إسرائيل وطوبى لأهلك، طوبى لقوتك وطوبى لضعفنا وامتهاننا العقلى الحقير... أين أنت يا عبد الناصر خذلتنا ورحلت...

* * * *

- 6 -

قبل أن ينهي خطابه لأسرته عنفهم من طرف خفي لإصرار أبوه على عرضه بالزواج من ابنة عمه، فهو وأن اضطر للزواج بالمراسلة ومن فتاة لا تربطها به علاقة حب بعد أن انقضى زمن وفرص الحب، فلتكن ثرية، أو الأفضل مثقفة محامية أو طبيبة من المؤهلات للعمل في الجمعيات الأهلية. ألم يكن طريقه للعمل في الصليب الأحمر زوجة صديقه، صاحبة إحدى هذه الجمعيات، وعلى آية حال فالوقت مبكر على الحديث عن الزواج، وختم خطابه بالتحيات والأشواق المناسبة لكل فرد بالأسرة، ثم أغلق الخطاب وكتب العنوان، غادر الغرفة حيث وضعه في صندوق البريد كي تحمله الطائرة التي ستأتى صباحا. وقبل أن يدخل فراشه كانت بلورة الفيروز تفتش أمتعته بتكاسل، لعنت دولاب الملابس وملابسه الداخلية المهللة المليئة بالثقوب غمغمت: اللعنة ألا يزال مثل هؤلاء الناس يحيون في هذا القرن؟ ماذا يمكن أن يصدر عنهم؟

في فراشه عكف مصطفي على كتابة جدول بأوليات احتياجاته؛ شقة تمليك، سيارة، تأثيث عيادة في وسط القاهرة، بعد فترة شطب العيادة لتصبح مستشفي نفسى، وهو ما يساوى حاجته لثلاثمائة ألف دولار، ما يعنى أن استمراره في عمله بالصليب الأحمر لفترة لا تقل عن خمس سنوات. فكر قد انتهت الحرب العر اقية وهو في حاجة لحرب جديدة كي يتمكن من الحصول على احتياجاته. وضع مفكرته جانبا وهو يغمغم... لست ماديا لهذه الدرجة.

مرت البلورة إصبعها المحتوى على كاميرا الدقيقة في مقدمته، تفر المفكرة الملقاة على المنضدة المجاورة للفراش، نقلت كل ما بها بامتعاض وقرف ثم صعدت متسلقة وجهه متفادية الشخير المتصاعد من منخاريه، عندما بلغت عينيه كانت يغط في النوم، أخرجت جهاز دقيق مثل ر افعة السيارات، وشرعت تفتح ما بين الجفنين، دخلت برأسها وأخذت تفتش في أحلامه، عندما أطبق جفنيه مطلقا لأحلامه العنان كي تمرح في خلاء واسع، انتصب في منتصف العينين المغلقتين بناء رحب لمستشفي ضخم من طابقين وسط خضرة ممتدة على الطراز الأمريكي فكر... وبالأحرى لست شرير لهذه الدرجة... أستطيع أن استغنى عن المستشفى... وقبل أن يغيب في النوم تذكر أنه ليس في حاجة الآن للزواج من أصله.

من بين الجفنين خرجت كلابتين رفيعتين لتزيح أطراف الجفنين جانبا، تعلقت وهي تدفع نفسها خارجا، غادرت العين المغمضة مندفعة لتدحرج على أطراف الوسادة، بالكاد تمكنت من تحمى نفسها من السقوط.

وقفت وهي تعدل من أجزائها التي انضغطت قليلا، تمطت يمنة ويسرى حتى استعادت لياقتها، نظرت إلى النائم بغضب: لا أستطيع تحمل عقليتك الفقيرة، فما البال بأحلامك الرخيصة، يجب أن أغادر هذا المكان، .It's too much

* * * *

في السابعة استيقظ مصطفى، وصل الميس متأخرا عن ميعاد الإفطار لم يجد أحد، بالكاد وجد بعض القهوة واللبن، كان جائعا لا يدرى ماذا يفعل، توجه للمطبخ وهناك لوحت له الطباخة التركية العجوز بالرفض وأخذت تدمدم بقرف عن المواعيد والانضباط وهو لا يفهم شيئا مما تقوله، جلس مكتئبا يرتشف القهوة باللبن وبينما هو على هذه الحالة المثيرة للإحباط دخل عليه سيزار ينبهه أن المجنون قد أفاق وان عليه أن يسرع إليه.

قام مصطفي من فوره متوجها للعنابر، بحث عن الفتى فلم يجده، نظر حوله فرأى أبو كريم يغير الملاءات والأغطية، سأله عن الفتى، أجابه: من؟ المخبول.

قرأ دكتور مصطفي تقرير المريض هتف بدهشة: قيس!

تساءل مندهشا: عرفتم اسمه؟ عرفتم عمره؟ قال حاجة؟

- شو دكتور مصطفى؟

- هو قال حاجة عن أسمه وعمره... بياناته؟

- والله خبل يا دكتور مرات يقول قيس ابن الملوح ومرات أمرؤ القيس، وشغلات هطل وخبل. وها البنية مصداقاته.

- هو فين دلوقت؟

أشاح أبوكرم بيده ضاحكا: عند العين مع ليلاه.

- عين!! عين آية؟

فكر قائلا: وإلا أسمع أنا رايح له ما تشغلش بالك.

في طريقه للخارج عرج دكتور مصطفي على دكتورة حبيبة وقد عزم أن يصحبها معه كي تحضر أولى جلساته للعلاج النفسى.

* * * *

سارت حبيبة بجواره غير مقتنعة بضرورة وجودها، لكنه أصر، غادرا عنابر الصليب الأحمر، وعلى الباب الخارجى وقف ينظر تجاه الشمال، لم يجد شيئا سوى الصحراء. من بعيد أطلت من وراء تل عريض من الكثبان الرملية، قمم صغيرة لمجموعة من أشجار النخيل. سألته: ألا تعرف أين هو؟

قال بلؤم: أعتقد عند العين.

- تعال سوف أخذك إليها، أنا أعرف الطريق.

سار خلفها سعيدا بخطته، كان يستدرجها وهو ينوى إثارة الغيرة ومن ثم النقمة الكامنة داخل امرأة إزاء فتى عابث لم تكن هي محل عبثه بل أنثى أخرى، وهو ما يتحول بصورة آلية للكراهية، بعدها سيقوم بصفع الفتى العابث صفعتين كي يفيق من خبله ويريح المعسكر منه ومن توهماته وينتهي من هذا الأمر الرخيص.

عندما سمع ضحكات ليلى قادمة من وراء التل، فرك يديه سعيدا بخطته التي طالما نجحت مع مرضى القاهرة، فكر يستعيد استراتيجيته التي طالما نجحت؛ أولا... ليست الأهمية أو من الضرورى على الإطلاق شفاء المريض، ولكن المهم قناعة المسئولين عن المريض بحالته الحقيقية، ولم يكن ليقلل من أهمية المريض، ولكن حاجة المريض للعلاج في بلاد لا تعترف بوجود الأمراض النفسية يحددها أهله أولا، ثم الاعتراف بوجود أزمة نفسية من عدمه، أزمة تعبر عن حاجة المريض للعلاج النفسى، يعقب هذا اتخاذ القرار بعلاجه، بعد هذه الرحلة الطويلة تبدأ رحلة علاج المريض نفسه، والرحلة الأولى رحلة مضنية ولكن ضرورية وبدونها يكون البدء في الرحلة الثانية مضيعة للوقت واستنزاف للطاقة، وهو سوف يستخدم هذه القواعد كي يضم المسئولين عن المعسكر إلى صفه، ولكن بشكل

عكسى فالأوربيين يبدؤون باعتبار حالة مثل حالة الفتى حالة مرضية حادة، وهو يرى أمامه مهرج ماهر يلهو بعواطف صبية صغيرة وسط أخر مذابح القرن العشرين، التي جرت على مذبح الصحراء الساحر، ولهذا كان يتعين عليه أن يبدأ بنائبة رئيس المركز وهي عربية سوف يثير نوازع الغيرة لديها كي تمتلئ بالحنق على المريض ومن ثم تأخذ صفه، وفي النهاية سوف يستخدم الطريقة المثلى للتعامل مع أمثال هؤلاء الأشخاص السيكوبائيين خاصة الذين ينتمون إلى الطبقات الثرية، صفعتين وسيفيق بعدها، وسيعود المركز لهمومه الرئيسة، حرب الخليج.

تبعها وهي تقوده ناحيته التبة، وعلى المرتفع عادت الضحكات فجدا السير إلى حيث كانت تختفي العين وهناك وقف مندهشا، رفع يده التي أمسك بها مفكرته، وهرش رأسه ثم تغلب على حيرته ونزل العين، غير متوقعا ما يراه، وهو لا يتخيل حجم الصدمة التي ستصيب حبيبة. عنف نفسه على فعلته وتمنى لو استطاع أن يعود بها للوراء.

كان الفتى يسبح عاريا في العين إلا من بنطاله الكاكي الممزق يكشف عن ركبتين راسختين وصدر رخامي عريض، وبجواره تسبح في ثوب استحمام عارى يتراشقان بالمياه، وقد تبين لمصطفي أن الفتاة مولعة بالفتى، هل هذا يساهم في العلاج أو يعرقله، هز كتفه غير مهتما. لم يكن مهتما بالفتى، كان مهتما بنفسه فقط.

صعد الفتى وأعتلي حجرا بين الرمال، وجلست ليلي أمامه تنسدل جدائل شعرها الأشقر حول كتفيها العاريين، تحدق فيه بعيون خضراء، تتأمله بهيام ووجد، سمعه مصطفي يحدثها عن شعرها الحالك السوداء وعيناها السوداوين الشديدة الغور، العميقتين عمق الليل، نظر إلى حبيبة، ثم تقدم من قيس، وبسخرية بالغة أمام ليلي وحبيبة قرر أن ينال منه أمام الفتاتين، ابتسم ابتسامة قاطعه وهو يضع يديه في جيوبه:

- بطل بقى يا عم ما تسوقش الهبل على الشيطنة.

نظر قيس نحوه مندهشا ثم عاد يستعيد سيطرته على نفسه، ونظر إلى الطبيب مستفهما: ما الذي تقصده يا سيدي، ولماذا تعرض بى و أنا لم أتعرض لك؟

- يعنى لا ليلي هي ليلى ولا هي عامرية ولا شعرها أسود ولا عينها سودا.

تجاهل الفتى تعريضه في غضب، لكن دكتور مصطفي مرريده أمام عينى الفتى مبقيا على سخريته، دفع الفتى يد مصطفي عنه بقوة وصرخ فيه مؤكدا: يا طبيب... بصرى أحد من بصرك، ولازم تعرف أنك الأعمى و أنا المبصر. أتركنى في سلام يا أخى.

- يا أخى فسر لى كيف ترى الشعر أصفر أسود، والعيون الخضر سود.

لاحظ مصطفي أن حبيبة تبسم: عندك عمى ألوان؟ أو عندك إنزياح في الشبكية، أو إنزياح في اللغة؟

- هذا شئ يخصنى.

- لأ شخصيتك لا تخصك، شخصيتك تخص الآخرين، حتى لو كنت روبنسون كروزو.

- كيف يا رجل؟

- إحنا في منطقة حرب لازم هويتك تبقى معروفة لنا، تحب نسلمك للعر اقيين مثلا؟ أو نسلمك للكويتيين؟

- ليش يا أخى؟ أرض العرب للعرب. ما في حدود أو مسميات تفصل بينهم، اتركونى أرحل سأرحل فورا.

- قل لنا من أنت أولا؟

- أنا ابن هذه الفلا، أنا ابن هذه البيد، قد شعرى من سحرها، ونثرى من سماء ما تنتهي إلا من وين ما تريد.

- لا لا سيبك من شغل السباكة ده.

- ما معنى سباكة.

- شغل السباكة والبقالين.

- سباكة بقالين، ما فهمت.

- يعنى ممكن تلبس أى واحدة باروكة وتحطها في علبة ليل بالبصرة أو شارع الهرم، وتقول فيها شعر، هل ده معناه أن حضرتك تبقى قيس بن الملوح؟ أو أمرؤ القيس؟ بص أسمع كلمنى عن نفسك شويه.

تحدث قيس لمصطفي بحدة: آيه أنا عربى...

- جميل.

- ما يكفيك؟

- يا ابنى بطل شغل الأفاقين وكلمنى بطريقة محترمة.

- كيف؟

- يعني فيها شويه منطق.

لاحظ قيس امتقاع وجه ليلى وهي تتابع الحوار الذي يدور بينهما. حدث مصطفى:

- و أنا أحدثك عن نفسك.

أجاب مصطفي بغضب: أنا مش موضوع للكلام أنت اللى مطلوب تتكلم عن نفسك.

لاحظ مصطفي أنه يتحول لشخص حاد يسلك سلوك عدو انى لا يمت للطب النفسى بصلة، ابتسم لحبيبة وعاد يحدث الفتى: عايز

تتكلم عنى أنا، مفيش مشكلة، نفسى نفسك! كلها مداخل للحياة، أتفضل أيها الشاعر الفحل.

- أنت مصرى، مو هيك؟

- نعم.

- ولهذا فأنت لست سوى نفاية.

انتبه دكتور مصطفي وحبيبة، بصعوبة سيطر مصطفي على أعصابه. استطرد قيس: أنت لست سوى نفاية، تعجز عن أن ترى الحياة ولا الجمال الكامن في الحياة.

تخلل جدائل ليلى بأنامله، التي استسلمت كالمنومة، تاركة إذنيها تستمع لحبيبة تترجم الحوار الحاد الذي يدور بين الرجلين، استطرد قيس: ولن تتمكن من رؤية كيف تتحول الجدائل الصفراء الذهبية المجدولة من أشعة الشمس إلى ليل حالك الظلام.

انتقلت أنامله لجفونها وهو يستطرد: ولن تعرف أيها المخاتل الترابى ذو القامة التي تقل عن دود الأرض ارتفاعا كيف ضاع اللون الأزرق للسماء ومعه أمواج المحيط اللانهائية المرسومة على صفحتها دورة الأفلاك والمجرات، ولا كيف تزين الواحات الخضراء صحراء قاحلة ليس بها قطرة من ماء، لأنك مجرد شخص يرتعد من الخوف وقد أمسك بتلابيبه تاريخ من الجبن حتى نسى مذاق الرغبة في الموت من أجل أن يحصل على حريته، ويشرع في المغامرة، لست سوى فلاح أسير لوادى من الطمى ونهر من غرين، ولست سوى فأر مصرى غادر سفينة تمتلئ بالفئران، فأر مذعور يبحث عن مخزن غلال يختبئ فيه من أجل التكاثر، لعنة الله عليك وعلى أمثالك. قف يا رجل مما تخاف.

بدت عينى مصطفي مذعورتين بالفعل، نظر حوله وجمع أطراف عزيمته وقد انقلب به الأمر، قال غير قادر على إخفاء غضبه: مما أخاف أيها الصعلوك، مما أخاف؟ وليس لدى ما أخافه.

أجابه قيس برعونة: لديك ذلك المرض الخاص بالمصريين، ذلك الخوف المسمى بفوبيا الفقر، الخوف من الجوع، لقد دمر أبصاركم وهشم عقولكم خوفكم على أطفالكم فلم تعودوا ترون أى قيمة تنطوى عليها النفس الإنسانية، وأنتم طاحونة الشرق القديم ومخزن غلال إمبراطورياته، الخوف أوهام دمرت عقلكم أيها المصريين. جعلت منكم جرذان مذعورة تجرى في المرافئ، تتلاعب بها القطط، تسعد بعريها وشقائها، تسخرها في مزارعها وطواحينها، وتسمن من لحومها سماد من أحل كلابها وذئابها، فكيف لك يا رجل أن ترانى وأنت الأعمى تفتقد بذعرك البصر والبصيرة؟ كيف ترانى وتعرف حقيقتى؟ وبينى وبينك جدار سميك من الظلمة؟ وأنت أعجز من أن تنفذ ببصرك لجوهر الأشياء.

- كيف تجرؤ؟

- نعم أسمعنى علك تسمع ما يفيدك ويحل قدرا من مشاكلكم المستعصية على الحل، عليك أولا أن تزيل العصابة التي نبتت على عيونكم فلم تعودوا قادرين على أن تبصروا من الشمس إلا عرش الوالى، ومن سحر القمر إلا سوط المطاردة لكلاب العسس. دع عنك شؤونى وإذا كان ثمة مريض في حاجة للعلاج حقا فهو أنت.

استطرد قيس يحدث دكتورة حبيبة: يا ملكة ربوع الجان ابحثوا لى عن عراف من أهل السند والهند، أو ناسك من زهاد الصين، أو حكيم مصرى قديم، أريد فليسوف من أهل اليونان، لكن مالى ومال هذا الجرذ يا ملكة ربوع الجان.

تراجعت حبيبة مذعورة، ضحك مصطفي يخفي اضطرابه من الدائرة الملتهبة التي وضعه فيها الفتى، وكأنه وجد منفذ يخرج رقبته من الأنشوطة التي تدلى منها، أنحنى عليه وأمسك به من إذنه اليمنى مؤنبا يحاول أن يعامله بصورة أبوية وبصورة أخرى بضعة:

- عدنا للشعوذة يا سباك ألف ليلة وليلة.

نهض قيس غاضبا مصطدما به في صدره بعنف، تراجع مصطفي وقد فقد اتزانه فسقط على ظهره بين الرمال والمياه، وسط ضحكات الفتاتين، مال عليه قيس معنفا:

- أبتعد عنى يا رجل واخجل من نفسك، خل شأنك وإياى، لست سوى كاهن حقير في معبد لأمون يتزلف بالألفاظ الميتة، يا رب الكهنة والملوك هذا عبدك مصطفي خذه بعيدا عنى فليس دينى من دين المنافقين.

سأله مصطفي بدهشة: ماذا... أيه اللي تعرفه عن أمون؟

لم يهتم به الفتى، والتفت إلى للوراء وجلس غاضبا على الصخرة، جرت ليلى تأخذ كفه بين كفيها وتهمس: كن صبورًا، لماذا تتصرف بعصبية قيس... أرجوك قيس يجب أن تتقبل العلاج.

نظر لها متفهما، وقد عادت لوجهه الساهم زيغ النظرات، في اللحظة التي قرر دكتور مصطفي أن هذه هي فرصته كي يستعيد زمام الأمور، وأن عليه أن يغير من تكتيكه ويأخذ الأمور مع الفتى بالحسنى وأن يتوقف عن السخرية منه، وإلا فسوف يجمع حقائبه ويغادر المعسكر عائدا إلى القاهرة مطرودا، حيث لا ينفع البكاء على اللبن المراق، سأله برفق عن أسمه وجنسيته، ودون أن يدرك ما يقوله استطرد يسأله إذا ما كان ذكر أو أنثى، انتفض الفتى ووقف متعبا، تحدث وهو في شدة الأسى عن الإهانة التي ألحقها به الطبيب المصرى الذي يطارده وقد فقد السيطرة على نفسه كلية:

- من هذا المعتوه؟

- هذا المعتوه من يسألك، من أين أنت؟

- وماذا يفيدك أن تعرف من أين أنا؟

- أنا طبيبك وأنا الذي أحدد ما يفيدنى وما لا يفيدنى، فقط جاوب، أرجوك...

- أنا من بلاد الذين إذ أحبوا ماتوا.

- ومن هؤلاء البلهاء؟

- أصحاب الحب العذرى أيها الأحمق.

ثار مصطفي وشعر بالإهانة أمام النساء أشار لنفسه مستنكر: أحمق أنا، أما أنت فمن حثالة أزقة بغداد أو البصرة، سمكرى قضته حوارى دمشق أو الإسكندرية فلا تحدثنى عن الحب العذرى.

- أتنكرنى يا ابن العم وأنا المجنون، تغنت به البادية والحضر، فصرت علم الصحراء والعشق. ابتعد عنى بربك.

أشاح الفتى في وجه مصطفي بيده ملولا ومال إلى ليلي يمسك يديها بعفة وهتف يحدثها:

أخذت محاسن كل ما ضنت محاسنه بحسنه
كاد الغزال

نظرت إليه بإعجاب ووله همست: هل جننت؟

انتفض الفتى وترقرقت الدموع في عينيه و أنشد

قالت جننت . . .
فقلت لها الحب اعظم ما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه
وإنما يصرع المجنون في الثو والحين

رفع الفتى يديه للسماء ثم سقط مغشيا عليه... سقطت ليلى عليه وهي تهتف والدموع تملأ مآقيها: مسيو قيس ... قيس...

دمدم مصطفي منفعلا يقلدها: مسيو قيس... مسيو قيس...

لكنه لمح حبيبه تحدجه بنظرات صارمة، فلما بلغته رسالتها رحلت غاضبة، هز كتفيه مستسلما لجنون الفتى، مد يده يأخذه من يدى ليلي التي أمسكت به، همس يخبرها أن عليه أن يبدأ علاجه... رفعت ليلى عينيها مستسلمة ومتفهمة، حيت ليلي مصطفي وانسحبت مبتعدة غير قادرة على أن ترفع عيناها عن الفتى.

* * * *

كانت المرة الأولى التي يختلى فيها مصطفي بالفتى، سأله عن أسمه وجنسيته ... هذه المرة أجابه بوضوح وجلاء رافعا إصبعه وهو يشير إلى أثار المعارك والجثث التي تملأ الصحراء: أنا الفارس العربى مخالط الصحراء والحضر، من اجتمع خيالة الروم على قتله فلم يتمكنوا وأنشد:

ملوك من بنى حجر يساقون ويقتلون
فلم تغسل جاجمهم بغسل
ولكن في الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم
تنتزع الحواجب والعيونا

ضحك مصطفى: يبدو أنها أنستك عذرية ابن الملوح فعدت أمرؤ القيس.

انتفض الفتى غاضبا لتعريض مصطفي بليلي: ألن تكف عن احتقارى؟

رفع مصطفي عينيه ينظر الفتى مندهشا لحيويته وذكائه، كف يديه عنه وهز رأسه بالموافقة، وقال مستسلما: سوف أفعل ولكن عليك أن تكف عن ألعابك.

- أى ألعاب.

- ألعاب الدينمو؟

- وهل تدعى أنك بطبيب؟

- ولم لا؟ أتراني لست كفء؟

- لو كنت لاكتشفت الداء بنفسك.

- سوف أفعل.

بدهشة سمع مصطفي يسخر منه: كيف وذهنك مشغول بها.

- من؟

أدار الفتى رأسه بعيدا ولم يجبه، التمعت عينى مصطفي بالقلق، وقرر أن يبدأ منذ اللحظة لتعامل معه بجدية كاملة وقد شعر أنه يتحول لأول مرة في حياته مصدر للسخرية، فتح مفكرته وشرع في كتابة معلوماته عن الفتى، لكنه عاد يأخذ الأمر كله باستخفاف مقررا على مضض: لولا الدولارات... هؤلاء العرب ونفطهم الدموى لولا الدولارات... الآن هو أمام مجنون من نوع سطحى حفظ بعض الأشعار من مقرر ثانوى، وربما كان يحلم بأن يكون ممثل يود أن يلعب دوره على مسرح من لحم أبيض... طريقة سهلة ومضمونة...

شطب دكتور مصطفي على تعبير مجنون وكتب ملاحظاته. ألاعيب جنسية عربية على تهويمات الجنس الأوربى لا تلبث أن تكتشف وسوف نكون في حالة محرجة أمامهم كما كنا دائما. وعقب وهذا يعنى

دكتور مصطفي لو كنت مخطئا أنك تعبر عن أمرين؛ إما موقف دونى أمام الغرب. أو غيرة مفرطة من الفتى الذي يجيد التلاعب بعواطف الطفلة الفرنسية.

هرش أنفه وفكر. ولكن من قال أن ليلى طفلة وقد تجاوز عمرها السادسة عشر، ألقى بكل شيء بعيدا وقام غاضبا وهو يتهم نفسه بأنه قد فقد كل الموضوعية الممكنة أو الضرورية التي تعينه للقيام بمهمته... عند منتصف الطريق إلى المعسكر عاد غاضبا إلى النبع حيث أخذ يجمع أوراقه وهو يلمح ابتسامة التشفي على وجه الفتى، صاح به في تحدى وهو يجلس قبالته مباشرة: قليل من الصبر مسيو قيس. على أن أعكف على دراسة حالتك. لنتعامل مع الأمر بشكل بسيط... للوهلة الأولى حالة نفسية نتيجة مباشرة للحرب. أضاف مصطفي في مفكرته... ثانيا شخص سيكوبائى في حالة نكوص عاطفى، أى تعقيد هذا؟

طرق المفكرة بقلمه وعاد برأسه للوراء فوجئ برأس الفتى في قلب المفكرة تقرأ كل ما كتبه، سارع بإغلاقها، وتراجع قيس مديرا رأسه بعيدا، تنهد دكتور مصطفي وحدثه قائلا: من الآن يجب أن نأخذ الأمور بجدية وإلا سوف أودعك مستشفي للمجانين.

نظر إليه الفتى نظرة باردة، وعلى حين غرة خطف الفتى مفكرة الطبيب المصرى وعكف على قراءتها وصرخ: سيكوبائى في حالة نكوص عاطفى... هذا كل ما تفتق به علمك؟

حاول دكتور مصطفي أن يأخذها منه رغم قوة بنيته دون جدوى، تقلبا سويا على الكثبان الرملية، بينما الفتى لا يتوقف عن القراءة والضحك، عندما يئس مصطفي جلس مستسلما في نهاية الأمر لا يفهم سر ضحكات الفتى وأخيرا سمعه يخبره قائلا:

- أعتاد أن الناس أن يكنونى أنا قيس أبن الملوح.

قاطعه دكتور مصطفى: ألم تكن منذ قليل أمرؤ القيس؟

وما الفرق يا صديقى... أنتظر ولا تقاطع مجنونا أبدا أعتاد أن الناس أن يكنونى أنا قيس أبن الملوح بالمجنون وكانت مستشفاى على أيامنا هي الصحراء إذ عدت الصحراء أفضل دواء، و أنا لأن أكون مجنونا أحب علي من أن أصير عاقلا مثلك.

- لا يا شيخ.

- إذا كنت أنا عبد لهوى ليلى فأنت الطبيب عبد للدنانير، و أنا قيس لن أقبل أن يكون طبيبى عبد للدينار.

- ولماذا أصير عبدا للدينار

أشار الفتى إلى قائمة احتياجاته التي كتبها في المفكرة: ها هي مفردات أشعارك سيد مصطفى، شقة تمليك، سيارة، عيادة مستشفي نفسي.

- وما في ذلك؟

- أليس من الجنون أن تبنى بالقلم قصور على الورق، يا سيدى الطبيب تعال ننطلق سويا للصحراء نمتلك الشمس والقمر تعال أضع ملك يمينك الآلاف المؤلفة من النجوم ولن يقل لك أحد كفى، فالنجوم لا تنتهي، أو أن يقول أنك اعتديت على حد من حدودى، تعال أنشد معى أناشيد الهوى والحب العذرى الجميل، أنا أغنى لليلى و أنت لمن تشاء من الغو انى والظباء نملأ الصحراء بأشعارنا. فتردد البادية أسمائنا عدد ذرات الرمال.

- عدد ذرات الرمال!!... قالها مصطفي كالمنوم.

- أى بلى فهل مثل هذا تعد النقود؟

كان دكتور مصطفي قد فتح فاه، وهو على استعداد للرحيل خلفه، تخيل لو أن ناقة تنيخ في الجوار لرحل كلاهما في التو والساعة على

ظهرها. هز رأسه محاولا التخلص من تأثير الفتى وحديثه، وقام وكأنه ينقذ نفسه من تأثير مخدر. مد يده يخطف مفكرته التي تخلى له الفتى عنها بسهولة ورحل، من بعيد استدار إليه وصاح عليه:

- ستأتى إلى في العيادة غدا الساعة الر ابعة لديك جلسة معى.

هز الفتى رأسه علامة المو افقة.

* * * *

- 7 -

كان الصباح كئيبا، وبينما كان سيزار يستعرض في اجتماع المتابعة الأسبوعى مع مديرى الأقسام أعمالهم، جاءت أخبار الصباح بقيام قوات القوات الأمريكية والبريطانية بتدمير الجسور العراقية جميعها، وبدا واضحا أن الولايات المتحدة لم يعد في نيتها الاكتفاء بتحرير الكويت بعد أن حررتها بفاتورة مزدوجة الدفع من الجانى والضحية، ولكن تدمير الشعب العراقى لحساب إسرائيل، على أن تدفع الفاتورة كاملة الكويت والسعودية ودول الخليج، ورغم الانسحاب الفرنسى السريع من الحرب إلا أن التوتر ساد الاجتماع، الطبيب المصرى هو الوحيد الذي لم يكن يعى شيء مما يدور حوله، إذ لم يكن مهتما على الإطلاق سوى بعمله، وفي الحقيقة جمع أكبر مبلغ من المال يمكنه من بدء حياة مقبولة تنقله من داخل دائرة المشقة وشظف العيش بالقاهرة إلى اللحاق بقطار الثراء السريع، ولهذا كان عاكفا على التفكير في استعادة أهم النصائح التي حملها معه وهو قادم من القاهره، وأهمها أن يبتعد عن السياسة ثم على رأسها الانتباه من الفلسطينيين لأنهم أول من سوف يسببون له المشاكل في الغربة،

ويضعون له العر اقيل لدى أرباب العمل، وفي النهاية ربما ينتهي أمره بفصله، لهذا بحث عنهم ولما لم يجدهم تنفس الصعداء، فالفلسطينى الوحيد الذي يعمل في المركز على أى حال رجل عجوز وهو ليس طبيبا، كي يشكل خطرا بأى حال، إلا إذ وضع له متفجرات أسفل فراشه ووشى به لقائد المعسكر، أو أن يضع في حقائبه منشورات سرية كي يمسك متلبسا بها عند اجتيازه الحدود وكلها والحمد لله أشياء لم يتم حدوثها حتى الآن، والأهم أن أبو كريم هو أطيب رجل قابله في حياته بل يود لو يجعل منه الجد الذي افتقده وهو طفلا في العاشرة، وقبل أن يتوه في ذكرياته داهمه سيزار بالسؤال عن خطته تجاه الفتى صاحب اللوثة، فانتفض عائدا للحاضر، لقد جاء دوره أخيرا، أخبر سيزار أنه سيبدأ علاج الفتى والذي قرر أن يدعوه قيس كما تفعل مداموزيل ليلى. وهو ما جعلها تمتعض، مما جعله يتساءل هل فقد كياسته كلية أم ماذا؟! أستطرد وسوف يتابع العلاج مع المدعو قيس عبر مجموعة من الجلسات المصحوبة بجرعات من الأدوية المنشطة للذاكرة، ومجموعة أخرى قادرة على أزاحه الاكتئاب الذي من المؤكد أن الفتى مصاب به نتيجة الحرب وقد حددها جميعها في وصفة دوائية هي الآن على مكتب دكتورة حبيبة بالفعل. وقد تساءل سيزار عن الأسباب التي تدعو دكتور مصطفي للاشتباه في حالة الفتى الذي سيجتمع الجميع على دعوته بقيس منذ الآن.

عاد مصطفي بجسده للوراء وأخذ يعدد على أصابعه الدوافع التي يمكن أن تسبب الإحباط للفتى؛ منه أن يكون جندى عراقى خبله الهجوم المدوى الساحق لآلة الحرب الأمريكية واجتماع العالم وفي مقدمتهم العرب بمختلف صنوفهم وتوجهاتهم السياسية عليهم وخاصة سوريا التي يقودها رجال من نفس المنظمة السياسية التي تحكم العراق، وأيضا هو من الجيل الذي نشأ تحت سقف الشعارات التي طالما نادت وغنت بالوحدة العربية، وتحرير فلسطين، وإلقاء اليهود في البحر، وكلها شعارات انتهت لبالوعة المجارى، صحيح أنه لا

يهم ما فعلته القيادة العراقية، لا يهم أن كانت تضحياتهم على الجبهة الإيرانية صحيحة أم لا، لكن بوق الدعاية الجوبلزية للنظام جعل كل تضحية للشعب العراقى باسم العروبة، ثم جاءت الضربة القاصمة من الحرب التي شنها ضدهم تحالف من جيوش العروبة، صحيح أنها عروبة متنوعة من طراز عروبة الرجعية أو العروبة التوفيقية أو العروبة التقدمية، وهكذا ألا يفسر هذا اللغز الكآبة عند أى جندى عراقى.

قاطعته حبيبة: سلوك الأنظمة لا يعنى شئ بالنسبة للمواطن العربى العادى.

نظر إليها مصطفي باستهزاء وسخرية واستطرد: نعم هذا تفكير المثقفين ولكن المواطن العادى لا يعرف سوى الحقائق البسيطة، هذا القيس لو كان جنديًا عراقيًا عاش ونشأ تحت دعاية السلطة فسوف يصاب بصدمة موت لم يشعر بها أحد سوى المصريين بعد حرب أكتوبر عندما اتهمنا من قبل العرب كشعب خائن، نتيجة اعتراف السادات بإسرائيل، فالمواطن العراقى البسيط مثله مثل المواطن المصرى سوف يشعر بخيانة العرب له عندما يجد كل الشعوب والجيوش العربية تأتى له بالشيطان الأكبر المدعو أمريكا إلى عقر داره، وتقوم بالمحلل ليس للزواج ولكن للاغتصاب. يجب ألا نتغاضى عن تأثير الدعاية التي يبثها النظام المسيطر على الأداة الإعلامية.

سيزار: هل تدافع عن صدام؟

- هذا الطاغية السفاح، مسيو سيزار، أنا أضع نفسى مكان الصبى وأحلل مرضه، أما رأي في صدام فهو أمر شخصى خارج طاولة العلاج الآن، أنا أعدد أسباب الإحباط التي دفعت بالفتى للهروب إلى الوراء.

حبيبة: هذا لو كان عراقيا؟

أبو كريم: أيه... لو كان عراقيًا؟

مصطفى: لو كان كويتى فهو يعاني من صدمة مخيفة، فطوال السبعينات كانت الكويت مركز للإشعاع الثقافي العربى، وواحة للديمقراطية، وسط بحر من الاستبداد والجهل والتخلف، ولعبت في منطقة الخليج دور الزهرة بين النظام السعودي الرجعي المتحالف مع الاستعمار العالمى، والعراق المستبد حتى الخوزقة وإذابة الأجساد في الحوامض المركز. والنتيجة أن الفتى وهو على أى حال يبدو مثقفا رأى وطنه زهرة يغتصبها المستبد الطاغية، والكارثة أن جريمة اغتصاب صدام للكويت قد أصابت الكويتيين في عروبتهم بصدمة بالغة، فضلا عن ذعرهم من آلة الحرب العراقية، فحملوا العلم الأمريكي على أجسادهم، لماذا لا يكون قيس عربى كويتى رافض لعدمية تصيب الكويتيين في هويتهم وتجعلهم ينحون تجاه الأمريكان، خاصة أن الأشقاء العرب يطلبون ثمن تحرير الوطن المغتصب نقدا.

إلياس: مثلهم مثل الأمريكان والبريطانيين.

أبو كريم: كله بيدفعه في النهاية الشعب العراقى.

إلياس: كله بيدفعه العرب. لكن وليش ما يكون سورى أو إماراتى؟

أجاب مصطفى: احتمال غير مستبعد.

استطرد إلياس مبتسما وهو ينال منه: دكتور مصطفي ليش ما يكون مصرى؟

تراجع د.مصطفي للخلف لاحظ أن الجميع ينظر نحوه مندهشا لعدم ظهور الفكرة من قبل، عاد يطرق الطاولة بلطف يعبر عن ثقة وحسم معا: مستحيل... أبتسم واستطرد: هذه الحالة بالذات لا تصيب المصريين المشهورين بجلدهم وصبرهم. كما أن المصريين تخلوا عن الرومانسية منذ زمن بعيد.

إلياس: معقول دكتور، وين عبد الحليم؟ وين أهواك وأتمنى لو أنساك، وين النيل وعنيك وحنينى إليك؟

حدق مصطفي في اللبنانى وكأنه يفجر ينابع في حياته... هز رأسه برفض واعترض بحسم: لا لا... كان زمان، بعد الحرب أصبحت الشخصية الشعبية الناجحة عند رجل الشارع شخصية الفهلوى الفوريجى.

حبيبة: تقصد أية؟

- ببساطة النموذج الناجح أصبح الإنسان الفاسد.

حبيبة: وفين شمس الأصيل؟

نظر لها بانزعاج حبيبة تستطرد وهي تحول الكلمات للحن:

دهبت خوص النخيل.

إلياس و أبو كريم يغنون معها:

صحبة ومنصورة في صفحتك يا جميل.

حبيبة تغنى بصوت جميل وتستطرد:

في صفحتك يا جميل. . . يا جميل يا نيل. . .

نظر سيزار إليهم جميعا، شاهد مصطفي يسقط على الكرسى منهار، سأل سيزار ليلى: أيه... فيه أيه؟

كانت تطلع إلى مدخل حجرة الاجتماعات، وجد قيس يسد الباب بقامته الضخمة عارى الصدر تتدلى البوصلة على صدره، نظر لمصطفي بازدراء، حدث سيزار بالفرنسية وبسخرية: لا تهتم... فقط درس صغير في الرومانسية المصرية.

تراجع سيزار والدهشة تلجم لسانه، حدث ليلى: يا ألهي، هل رأيت ... يتحدث الفرنسية!!

غمغم مصطفى: معكم حق ولماذا لا يكون أيضا أحد المحاربين المصرين الذين صدمهم أن يقاتلوا العراق وهم يتوقعون دائما أن

يكون الجيش العراقى دعامة الجبهة الشرقية ضد إسرائيل خاصة مع عمالة الملكية الأردنية لإسرائيل، في هذا مدعاة للصدمة لأي محارب مصرى يفكر في الحرب القادمة مع إسرائيل.

* * * *

- 8 -

هبطت الطائرة الصغيرة على المهبط الصغير، وفي أحد الصناديق كتب أسم دكتور مصطفى، حملها إلياس من فوره لمكتب الدكتورة حبيبة التي كانت تقوم مع ليلى بمراجعة مخزون المركز من الأدوية، راجعت محتويات الصندوق وقررت إنه يضم العلاج الذي طلبه لقيس، صاحت ليلى بسعادة: سوف نكتشف شخصيته قريبا إذن.

رددت حبيبة دون حماس: في الأمراض النفسية لا تتوقعى نجاحا سريعا.

ولدهشتها لم تنتقص ليلى من سعادتها وعقبت: هو على إى حال رائع على هذه الحالة أيضا.

- تعنين وهو على حالة جنونه هذه؟

- نعم وهو على حالة جنونه هذه؟

- ذمت حبيبة من شفتيها و ابتسمت وهمست لها: أرجو أن لا تكونى عذراء أيضا.

ضحكت ليلى بأعلى صوتها وهي تلقى حبيبة بكل ما يدها من أوراق ودوسيهات: احترمى نفسك، أنت تتجاوزين كل شيء.

ضحكت حبيبة وهي تغادر المكان، لكنها رأت إلياس ينتظرها صاحت به:

- ماذا تنظر؟

- أوامرك دكتورة.

أعط دكتور مصطفي الصندوق وقل له أبدأ العلاج الإكلينيكي فورا يكفنا مجنون واحد.

* * * *

- ٩ -

راجع مصطفي الأدوية وسلمها إلى صيدلية المعسكر، بينما قادت حبيبة وليلى مع فريق المساعدين المرور الليلى على عنابر الجرحى، ودون أن تعرف ليلى إذا ما كانت تنوى أن تخبره أم كانت تحذره همست لقيس بأن دكتور مصطفي ينوى بدأ علاجه الإكلينيكي بالأدوية غدا.

رأته ينظر لها بوجع ويسألها رأيها: وهل أقبل؟

- تقبل ماذا؟

- العلاج!

قالت بسرعة وهي تمسك بيده: نعم ألا تريد أن تعرف؟

- أنا !! أعرف ماذا؟

- تعرف من أنت.

- أنا الذي تصرخ باسمه البيد والليل.

يا عزيزى ألا تريد أن تعرف شخصيتك الحقيقة؟

- شخصيتى الحقيقة!

- نعم ... قل لى من أنت ؟

- أنا العاشق في سماء ظللت ليلى، أنا العابد في محراب ألهته هي ليلى؟ أنا المتيم في أريج ورودها، هي وطنى، والأرض الذي وطئت أقدامها، هي معبدى وصلاتي.

تنهدت الفتاة وقد اشتعلت يدها بالنار الصاعدة من كفه الملتهبة، قامت غير قادرة أن تفلت كفه المتقدة من بين أناملها، تنتقل النشوة لكل جسدها، لا تدري كيف تستطيع مقاومتها، همست:

- يا ألهي ماذا أفعل؟

رأى إلياس ليلى تبكي فلمس كتف حبيبة، استدارت ترى المشهد التي يدور في صمت أمامها، والفتى والفتاة متشابكي الأكف وكلاهما تنثال منه الدموع بلا توقف.

سألته أن يستدعى دكتور مصطفي وفي هدوء أمسكت بكتفي ليلى من الخلف تجذبها بعيدا، قالت ليلى والدموع تنزف من عينيها: يجب أن تقبل العلاج، عدنى أنك ستفعل.

من خلف زجاج باب العنبر وقف دكتور مصطفي الذي أتى على عجل يتابع المشهد وقد سيطر عليه العجز، قرر التوقف عن الزج بنفسه في فعل الحماقات أو جعل من نفسه أضحوكة سهلة للجميع.

همس قيس: تريدين أن أقبل العلاج؟

قبضت ليلى على كفه بشده وهي تقاوم حبيبة وأصرت أن تسمع وعده:

- نعم أريدك أن تقبل العلاج.

- لأجل خاطرك ليلى سأقبل.

لحظتها تركت ليلى يده ورحلت منهارة وهي تبكي على كتف حبيبة.

* * * *

-10-

صباح مشئوما أخر، فقد سمعت صفارات الإنذارات للمرة الأولى تدوى في ساحات المعسكر، قيل ليس هناك مجنونا في المنطقة سوى النظام العراقى كي يهاجم معسكر منعزل للصليب الأحمر، بعد قليل عرف الجميع أن الأمر لا يخص هجوما ليلا ولكنه يخص هروب أحد الجرحى المصابين نفسيا، تنهد مصطفي وهمس:

- ليس هناك جريح نفسي سوى قيس، لقد هرب إذن.

قبل أن تنهي إدارة المعسكر تناول طعام الإفطار قام سيزار باستدعائهم لاجتماع عاجل، أوضح لهم أن أكثر ما يخشاه هو اتهام إدارته بالإهمال الجسيم سواء من جنيف أو أولئك الذين يطالبون بالفتى، ولهذا تقرر الخروج للبحث عن الفتى الهارب في جماعات باستخدام متتبعى الأثر.

ولمدة أربع أيام فشلوا في العثور على الفتى، أعلن سيزار أن الفتى لابد وقد مات في الصحراء عطشا. في ظهيرة هذا اليوم لاحظ دكتور مصطفي انفضاض الجميع من حوله، وخاصة أن مريضه الوحيد الذي رحل عن الدنيا، ولهذا فكر بشكل عملى وقرر أن يقدم برنامج

تأهيلى للجرحى بشكل عام، ورغم أن هذا البرنامج لم يلقى حماسا من أحد فقد قدمه لسيزار قائلا: إنه عصارة حبرة الحرب في الشرق الأوسط.

نظره له بدهشة وود لو رفضه قائلا... وما الذي يفهمه العرب عن حروب الشرق الأوسط، لكنه أثر البعد عن سلوكيات التي تعطيه مظهر شخص يتسم بالعنصرية وليس بالموضوعية، إذا ماذا يعرف العرب عن الحرب في الشرق الأوسط... أخذ مشروع البرنامج منه بابتسامة باهتة وأعطاه إلى حبيبة وعليها تأشيرة بالدراسة العاجلة.

أما ليلى فلم تقبل بالاستلام للنتائج الأخيرة، إذ أصرت على أن لا تتوقف عن البحث عنه، ولمدة ثلاث أيام ظلت تخرج منذ الصباح الباكر مصطحبة إلياس أو أبو كريم وقصاص الأثر لتعود في أخر الليل حزينة، وكان أكثر ما يثيرها نظرات الأشفاق التي بدأت تلوح في وجوه أعضاء المعسكر، والتحايا المصحوبة بالرثاء، قالت لأبوها في غضب: كان مريضي الذي عثرت عليه وسط آلاف الموتى ولن أفقده بسهولة.

في الليلة السادسة على مائدة العشاء بقاعة الطعام، شاهد الجالسين بالطاولة المحاورة نتائج محاولة حبيبة مواساتها وجعلها تتقبل فكرة موته، أجابتها بتحد وإصرار وهي توشك على الانهيار: كان ميتا بالفعل وأعدته للحياة، ولن أقبل موته بسهولة، واستطردت تهمس بتعب: أنت لا تعرفي شيء حبيبة، إنه سيطر على عقلى ولا يفارق أحلامي... قالت حبيبة برفق:

- سوف تتقبلى الو اقع...

صرخت: أى و اقع؟ موته!!

- نعم... فشلت في العثور عليه، لكن يكفيك أنك بذلت ما في وسعك.

وقفت ليلى بعصبية وهي تنظر لحبيبة بازدراء والقت بما في يدها على الطاولة راحلة وهي تردد: never ever .

* * * *

اليوم أبلغت دكتورة حبيبة مصطفي بقرار إدارة المعسكر حول برنامجه. سمع تعقيب نائبة مدير المعسكر بصدر رحب لا يملك سواه، قالت: أن مرضانا ضيوفا ثقلاء يجب الاكتفاء بالعلاج الإكلينيكي الذ يؤهلهم إلى إعادتهم بلادهم، ولو قدمنا برامج من هذا النوع سوف ينهال علينا الجميع باللوم.

سألها: هل أستطيع أن أعرف من؟

الإدارة من جهة لأننا نورط أنفسنا في برامج ليست من اختصاننا، ثم المرضى لأننا لسنا مختصين، وأخيرا الدول التي ستلومنا لأننا نقدم برامج لن نستكملها.

كان هذا كافيا كي يهز رأسه متفهما ويعود لغرفته وهو بعلم أن وجوده أصبح قصير جدا وربما غير كاف كي يحزم حقائبه، وخاصة إذا ما وجه أحدهم له إصبع اتهام من نوع ما حول هرب الفتى والتسبب في موته، لهذا عكف على العودة لحساباته وخطاباته، أولا إلى أهله لوقف كل مشاريع البحث عن شقة أو عروس، ثم عاد يراسل جامعات أوربا وكندا بحثا عن منح دراسية، بعدها قام على مراسلة كل الجهات والمصالح والجامعات بلاد النفط بها بحثا عن وظيفة خالية، وأخيرا فكر أن الحل العبقرى الملائم في حالته، هو العودة إلى القاهرة، و إنشاء جمعية للدفاع عن حقوق الإنسان، تلك الجمعيات التي تناسب عمل المحامين أو الأطباء نفسيين، سوف تمكنه من حل جميع مشاكله المادية، لم يكن يستطيع أن يبعد عن ذهنه كيف تحولت بعض مجموعات الحركة الطلابية الذين طالما كانوا معادين لكل أشكال التحريفية خاصة السوفيتية عن طهارة ثورية، والذين خرج

الطلاب طوال عقد كامل بمظاهرات عاصفة عقب اعتقالهم للمطالبة بالإفراج عنهم، والذين اجتمعوا على اختيار مهنة الطب النفسى، والتحول من ثوريين ماركسيين إلى تشكيل جماعات تعمل في حقل حقوق الإنسان وهذا طريف... ولكنها ممولة من منظمات مشبوهة تتبع العدو الإمبريالى. وحيث يكون الثراء من آلام البشر محل تساؤل ومرارة.

لالالالا... لا تستطيع أن تلقى باتهامات جز افية، لالا... لا تلقى على بترهاتك... أين تتحدد دوائر القلق؟ في التمويل من العدو الإمبريالى القديم، أم في الشبهة التي تنطوى عليها منظمات التمويل، لا لا أن دائرة القلق تتحدد في الثراء المخيف الذي ينتج عنه التمويل، في التجارة بحقوق البسطاء والفقراء والأقليات والمناضلين وتنفيذ مخططات واستراتيجيات وضعت في الخارج، تنفذ بها دوائر الصهيونية العالمية والإمبريالية الأمريكية تدمير ضمير الأمة وتجفيف منابعه...

من الذي يمكن أن يقتنع بسقوط مدوى مثل هذا لقادة خاضوا معركة الدفاع عن الوطن طبقيا ووطنيا هل كان يتعين عليهم الموت جوعا، وأغلبهم ينتمي إلى طبقات فقيرة... ولكن أى جوع كانوا يعانون منه؟ الجوع الناجم عن الفقر، أم الجوع للأضواء، دوائر النفوذ، هل للفلسطينيين دورا في هذا؟ أين تكمن المشكلة. في الأخلاق؟ في التجارة بهموم الناس والثراء من آلامهم؟ أم في الشفافية؟ وهل يحق لأحد التعميم. حيث الخطورة كل الخطورة في التعميم، لأنه في التعميم يختفي الشيطان خلف البريء.

لالالا... هل هو التعميم أم التعتيم، لو كنت شريفا أعلن عن مصادرك بشفافية ولا مواربة... وإذ لم تكن ...

لا تلومن من يشك في شرفك!!؟ و ابتعد بربك عن أحلام الناس وهمومهم ولا تدنس أمالهم الباقية...

لقد تحول كل شيء إلى جحيم من الأسئلة وعدم الفهم، فسحقا وتبا لمن يحيط الأخرين بالشبهات، وإنما نحن في عصر جديد ينبغى أن نفهم قواعده وقوانينه، ولو إنى فشلت هنا لحماقة مسبقة، ولو أننى اضطررت للخروج دون عقد عمل في الخليج أو السعودية التي أكره نظام حكمها كراهية مقيتة، ولو إننى أضررت اضطرار للعودة إلى قاهرة الفقر والكبح المقيت والقتل العمد لأبنائها وقصف العمر والأحلام ومن ثم مستقبل مظلم كاب مخيف، فسوف أقوم على تشكيل جمعية أهلية للدفاع عن حقوق الإنسان.

وبينما كان يبحث وسط غابات شبكة الإنترنت على عناوين منظمات العمل الأهلى الدولى ومنظمات التمويل التي تقوم بالدفاع عن حقوق الإنسان، سأل نفسه، أى الرغبتين تدفعك إلى عمل تلك الجمعية؟ النضال من أجل حقوق الإنسان أم الطريق السريع المفتوح الثراء السريع، عنف نفسه قائلا... ومتى كنت أخلاقيا يا دكتور مصطفى؟

وبينما هو منكبا على عالمه كان دائما ما يصطدم بجسد حبيبة في ردائها الأبيض وهي منكبة على علاج الجرحى بلا كلل ولا ملل، حتى خالها ملاك الرحمة الذي تحدثوا عنه قديما في الكتب المدرسية، وربما كانت قيس أخر يهرب من حرب دموية دارت على الحدود، حرب غير أخلاقية...

في غروب هذا اليوم وهو يتابع سقوط الشمس في الغروب همس... الشمس تأفل لكنها تبزغ ثانية. وعلى قمة ربوة التل تسكع مصطفي لا يدرى لماذا جذبته الصحراء الممتدة وتساءل... ماذا كان يفعل قيس وهو يطلق أشعاره في فضاء البيداء علها تصل ليلاه... وماذا كان يقاوم بالضبط، مرضه الخاص بالجنسية الغيرية حيث الأعضاء الجنسية للمرأة غير مرغوبة، ومن ثم طاقه جنسية موجه لعشق مغاير لفعل الجنس مصحوب بهيام بكل ما في المرأة من جمال عدا عضوها

الجنسى، عيونها، وجهها، جدائل شعرها، نهديها، خصرها كفلها ساقيها، كعبها المخضب بالحمرة، كل شيء عدا جرحها الدامى، أم أن الأمر يتعلق بمقاومة سلطة القبيلة الأبوية الطاغية على المنع والكبت والكبح والحرمان؟

ولكننا في منطقة حرب، وبين أيدينا فتى في مطلع العشرينيات، تراجع دكتور مصطفي منسحقا لهول الفكرة التي داهمته، مما يهرب الفتى إذا كان القتال بين ثلاثة أنواع من السلطات مثلت له الأنظمة المعرفية التي سيطرت على العقل والقلب العربى طوال النصف قرن الأخيرة، والمصنفة إما قوى الحلم العربى الذي قاده قوى الثورة والتمرد من اليسار القومى عبد الناصر في مصر وحركة القوميين العرب والبعث في العراق وسوريا والمنظمات الفلسطينية، ثم الأنظمة الرجعية، وأنظمة العمالة الإمبريالية، تلك التي دمرت الحلم ذاته، وثالثا قوى الترشيد والحكمة الظاهرية الحديثة في مصر وتونس أصحاب الميول والأهواء الأمريكية... ها هو الفتى يشاهد سقوط الحلم، وسط الالتباسات بعد هزيمة يونيو وموت عبد الناصر وخروج مصر مع السادات من حلبة الصراع، وقيامه بالإعلان عن ذلك بضرب حليفه القومى ليبيا في يوليو 1977 في تقدمة صغيرة للولايات المتحدة الأمريكية وتعبيرا عن حسن النوايا، متلبسا دور شرطى الحى البديل لإسرائيل، ثم جاء دور سوريا في ضرب الحركة الوطنية اللبنانية والمساهمة في طرد المقاومة الفلسطينية من خطوط التماس مع العدو الإسرائيلى لتنزع عنها أهم شروط وجودها على حلبة الصراع في مقابل إدخال لبنان داخل دائرة نفوذها الواهي، بديلا (مرضيا) عن فقد الجولان، والتراجع بالصراع في لبنان كله إلى أسس طائفية، وأخيرا جاءت السقطة الكبرى والأخيرة في محاولة ابتلاع العراق للكويت بعد أن انتهي من ابتلاع شعبه وتدمير الثورة الإيرانية وابتزاز دول الخليج، كل شيء فعله النظام العراقى إلا ما يعلنه في شعاراته وهو تدمير إسرائيل، ليبلغ الأمر ذروته بالحرب العربية العربية تحت قيادة

الإمبريالية العالمية بينما إسرائيل تراقب كل شيء بحبور وسعادة، بانتظار الإثابة الكبرى...

وها هم الفلسطينيين كعادتهم يخلطون أوراقهم فيدعمون نظام استبداديا حطم شعبه ثم استدار لسحق شعب صغير بحجة تحرير فلسطين، دون أن يتمثلوا للحظة القيمة الأخلاقية لكونهم شعبا سبق وأن أبتلع، ودون أن تعميهم أوهام الطغاة.

دار دكتور مصطفي حول نفسه منزعجا... هذا الفتى ربما يهرب من سلطة أبوية سقطت سقوطا مريعا و"أنا أعلى" فقد أخلاقياته بعد أن فقد مصداقيته، ثم انهار بأجمعه على أم رأسه، وكان من الطبيعى أن يهرب إلى ال "هو" العذرى الجميل... قيس الصغير، لقد بدأت أحبك... ولكن بعد فوات الأوان، أما حبيبة فلابد أنها قيس أخر تعكف على علاج الجرحى بطاقة غير عادية وكأنها تهرب من مأساتها، ولكن أيهم؟ مأساة الجزائر أم مأساة فلسطين، أم مأساة غربتها الخاصة بين شطرى المتوسط شماله الأبيض وجنوبه الأسمر.

في اليوم السابع جاء الصباح الباكر يحمل صراخ على البوابة كان كل من ليلى وحبيبة تتبادلان الحديث بصوت مرتفع وحبيبة تصرخ:

- ما عاد فيه نفط في المعسكر ليلى.

ونجيبها ليلى: لكن يوجد سولار حبيبة.

- أيوة بس هذا خاص بالطوارئ.

- وما الذي أفعله؟ موعد غرامى!

اقترب مصطفي يحاول أن يهدئ من حبيبة، لم يجد ما يقوله سوى:

- دى بنت مدير المعسكر.

لم تتمالك حبيبة سوى الاستغراق في ضحك هستيرى، رفعت ذراعيها بغضب، وهي تشعر بالجنون وطرقت رأسها: شويه مجانين. ونظرته باحتقاروغممغمت... انتم يا مصريين!

ألقت بمفاتيح السيارة إلى ليلى. شكرته ليلى وقالت متعجبة: ماذا قلت لها؟

أجابها وهو يهز كتفيه برعونة الذين يملكون الحقيقة:

- نبهتها إلى أنك أبنة مدير المعسكر...

أحمر وجه الفتاة من الغضب وودت لو تمكنت من أن تلقيه بصخرة تشج بها رأسه وهتفت: مستحيل الشرق...شرق.

قال بخيلاء وقد شعر إنها ولابد تهينه: قصدك آيه؟

ولم تكن لتجيبه، فقد أسرعت تعد الرحلة لبحث طويل، رفض أبو كريم الخروج معها هذه المرة وقال عاقدا العزم: والله في سماه ليلى هادى بتضيعنا.

وبصعوبة صحبت معها إلياس، وكذا رفض كل متتبعى الأثر الخروج هذه المرة، فقط تحمس أحدهم لما عرف أن الفتى ينتمي لقبلية بنى عذرة، وفي العاشرة صباحا شوحت بيدها لسيزارو واندفعت تقفز إلى السيارة اللاند روفروقد غلبها اليأس.

قادت ليلي السيارة في ملابسها الساخنة على التقاليد العربية والذكورة ذات الشوارب؛ شورت ساخن وبلوز حديث يكشف من أعلى عن نهديها ومن أسفل صرة بطنها الناعمة المدورة اللطيفة، عبرت نقطة الحدود العربية التي تحولت مركز لاستخبارات الجيوش العربية المتحالفة، حيوها جميعا وعيونهم تود لو تخترق صلب السيارة بحثا عن علامات الجسد وقد عرف الجميع قصة الفتى الذي فقد ذاكرته، وضاع في الصحراء، صاحوا عليها يتمنون لها أن تعثر عليه هذه المرة،

وعندما اختفت السيارة مصمص الضباط شفاههم وكل منهم يتمنى لو كان الفتى التائه ومثل هذه الحورية تبحث عنه.

وضحكوا جميعا، وقالوا جميعا أيضا... الأوربيين مهووسين بأشياء غريبة، فلو كان الفتى تابع لأحد جيوشهم لما احتاج كل هذا العناء، يوم يومان يكفيان، ثلاثة على أكثر تقدير، لكن أسبوع وسط الكواسر، مثل هذه الحالة لا ينقذها كل متتبعى الأثر وعناية الله هي فوق كل شيء، ومن معه عناية الله فهو في غنى عن كل الجيوش، وخاصة العربية، وغابت اللاند روفر في الصحراء، وغاب معها الحديث وعاد الضباط لأجهزتهم الأمنية يتابعون على الشاشات النقاط الصغيرة تدريبات قوات التحالف.

وفي الظهيرة وقد توغلت في الصحراء رأت ليلى جمع من الطيور الجارحة تحوم في الفضاء، ها هي ستحصل على جثته، وهم كاذب على أى حال، لكن عدد من البدو كانوا يهربون من أمام اللاند روفر كمن يهرب من أمام جنى من العماليق، أسرعوا بالفرار والهلع يفيض من منابعه، سارت خلفهم في اتجاه مدق يقود لمدخل بطن الوادى الذي أتى البدو منه، برزكنبت شيطانى عين ماء وغدير لم يكن موجودا قط في هذا المكان الذي ارتادته عشرات المرات من قبل، كان قيس ملقى في بطن وادى ممزق الثياب عاري الصدر، مثخن الجراح في حالة يرثى لها وبجواره أعر ابية ساحرة الجمال ترتدى اللباس البدوى، تكشف عن وجه مدور بالبياض الشاهق وعيون نجلاوين، عمقهما عمق الليل البهيمى، تفيض بالشهوة والشبق الموسوم بإماء وجوارى السلاطين. حيث الرغبة صحراء لا يروى قط... كان قيس المعذب ملقى في الظل وقد أنهكته مشقة السير في أثر قافلتها. وقد أوشك على الموت، بينما ساحرة الشبق مالت عليه تسقيه من لبن الماعز.

نادت ليلي على معسكر الصليب الأحمر في اللاسلكي وهي تقفز نحوه جريا وقد أصابتها مشاعر الغيرة، سألت إلياس عن المرأة التي تجلس

بجوار قيس، فكر إلياس وقد أصابه الوجوم ثم صرخ مشدوها: ما بعرف خيو... ومين ما كانت؟ بلكي ليلى الأخرى.

- أى أخرى؟

- العامرية.

ألقت الفرنسية الشابة بنفسها على قيس تزاحم ليلى العامرية، تبلل شفتيه بماء معدنى من براد صغير، بينما كان قيس يلهج بالغناء لليلى العامرية. نظرت العامرية لليلي بغل وسألته:

- من البغى... ؟

- نظر قيس لليلى وشعر أنه في ورطة، لكنه نفي معرفته بالفتاة:

- حييت ليلى وكيف لى أن اعرفها!

- أتستغفلنى قيس؟ والله وأن عينيك لتفضحك.

تدخلت الفرنسية الشابة وهي تدفعها للخلف: ليلى شيرى من الذي يستغفل الأخر؟ لكزتها بقوة وهي تشير إلى زوجها ورد القادم على صهوة جواده من بطن الوادى محذرة: ليلى أااميرية ورد زوجك أنت قادم ...

من بعيد كان ورد يأتى على عجل ومعه فتيان القبيلة.

صرخت العامرية هلعا: زوجى ...

هربت متحججة بزوجها وأصحابه، وهي تودعه باكية، قبل أن تبتعد استدارت تنظر إليه وهي تغمز له بعينيها وتهدج بالشعر قائلة:

كلانا مظهر للناس بغضا

وكل عند صاحبه مكين

تبلغنا العيون مقالتينا . . .

وفي القلبين ثم هوى دفين

وعندما ابتعدت عنه صرخت تطلب النجدة، تصيح برجال القبيلة وفتيانها أن ينقذوها من الفتى قيس الذي يريد أن يهم بها وهي تقاومه أشرش مقاومة: ألحقونى يا رجال القبيلة... أنقذونى يا شباب القبيلة، قد حاول أن يهم بى ويراودنى عن نفسي.

وهل تركته يفعل يا أختاه.

ويلاة ويلاة، وأذلاه

صرخ ورد بجنون: وأذلاه

تقدم ورد وأصحابه من فتيان القبيلة يعتورون قيس من كل جانب، وقيس يسأل ورد وهو يقاتله بالسيف منشدا:

بربك هل ضممت إليك ليلى

قبيل الصبح أو قبلت فاها

أجابه ورد وهو يشتعل بالغضب: هي زوجتى وخليلتى وما دمت قد حلفتنى فنعم وألف نعم.

صرخ قيس بلوعة وعذاب وتناقلت صرخته الصحراء، استطرد وهو يقاتل ورد والشباب والطعان تنهال عليه من كل جانب

وهل رفت عليك قرون ليلى..

رفيف الأقحوانة في نداها

بكت ليلى الفرنسية وهي تتحدث في جهاز اللاسلكي تنظر لقيس وتخبر أباها أنها وجدته لكنها توشك أن تفقده ثانية، جرت ناحية قيس وهي تتعجب وتغمم بالعربية المكسرة: و أيم الله أنتِ مش مجنونة قيس أنتِ مخبولة دى مر اته حبيبى. لازم ينام معها.

صرخ ورد وقد أوشك على قتله: وايم الله إذا كان هذا يريحك أو يرحنا منك فنعم وألف نعم، وقد نمت معها مرة وألف مرة ونلت منها ونالت منى مرة وألف مرة، إذا كان هذا يشبعك يا بن صعصعة، ه يجعلك هذا (تحل عن سمانا) وترحل، أزعجتنا والله، وأزعجنا شعرك.

كان قلب قيس تعتصره اللوعة، أن ينال منها نعم، ولكن أن تنال هي منه، فكيف؟ فتح صدره لورد وطلب منه يقتله: إذن بالله عليك أدفن سيفك في صدرى، وانزع عنى روحى، وأجعل من نصلك في قلبى سبيل لراحتى الأبدية، فلم يعد لى مكان للعيش في هذه الدنيا أخى ورد أنا المعذب في هواها.

أطلقت ليلى إحدى طلقة من طلقات الضوء الكاشفة فتراجع الفتيان هلعا وأسرعت تهاجمهم باللاند روفر فتراجعوا وكأن وحشا أسطوريا يهاجمهم، وصرخوا: جنية قيس... جنية قيس.. التي تهبه الشعر وأعوانها... اهربوا يا بنى عامر وإلا سخطتكم كالحجارة والصخور.

هرب قصاص الأثر من الرعب، حملته يعاونها إلياس ورحلت مختفية بين الرمال والسراب والسحاب والبيداء والسحر والشعر والمطر.

انتقلت أخبار العثور على قيس في المعسكر كالنار في الهشيم، بحث مصطفي عن حبيبة في كل مكان حتى وجدها أخيرا في صالة الطعام، أخذ صينية طعامه وذهب لطاولتها مبتهجا: وجدوه أخيرا.

- قول صباح الخير.

- بصراحة عثور ليلى على قيس أهم من تحية باردة متكلفة خالية من أى حرارة .

- يا سلام واضح إننا اللى بنتعالج مش هو.

- معاك حق إحنا اللى محتاجين للعلاج. مالك واضح أنك مش بتحبيه.

- طبعا أنت مش ح تتخيل موقفى...

- ماله موقفك؟

- مش أنا اللى منعتها الصبح من الخروج عشان تدور عليه.

- وأهي لقيته... اشكرينى.

- ليه؟

- عشان أنقذتك و(خليتك) تعطيها سولار.

- بحجة آيه دكتور؟ إنها بنت رئيس المعسكر آيه الامتياز اللى تاخده؟

- دايما أولاد الرؤساء لهم امتيازات خاصة الأطفال.

- أبى كان عضوا في اللجنة المركزية في جبهة التحرير أثناء حرب التحرير، بعد الاستقلال لم يكن له امتياز. ولم يبق في الجبهة طويلا، لقد انتهت الثورة وتحول الثوار إلى منتفعين بيروقراطيين، ولهذا غادر أبي الاجبهة مبكرا وأصبح مناضلا من أجل الديمقراطية والإنسانية، فكان جزاؤه أن ذبح هو وأمى وأختى الصغيرة.

تغضن وجهه ثم قال مواسيا: ما دام أختار ان يكون نبي... خلاص يتحمل نتائج اختياره.

- خلاص ليه؟

- الاختيارات في الحياة مقسمة بوضوح.

- وأى قسمة تلك يا حكيم تريد أن تريني إياها؟.

- كل من يريد لنفسه دور مثلث... سبارتكوس على ابن أبو طالب جيفارا، عليه أن يتوقع دائما أنه ح ياخد فوق دماغه، ويعيش في الظل وأن مصيره المفضل سجون ومعتقلات الأنظمة الاستبدادية، والحياة

الغير مستقرة يعنى زى ما بنقول في مصر: ورا الشمس ويموت بالحصرم والإحباط والاكتئاب وبعدين بقى "له الجنة" إذا كان فيه جنة؟ واللى اختار دور القياصرة معاوية ابن أبى سيفيان، هارون الرشيد، سلاطين وماقيا وعسكر هذا العصر، وأخيرا الأمركة، فله النفوذ والدهاء والنفاق وسيف الجلاد وسوطه وسلطة الاستبداد وشهدها وعسلها وشهوتها وذهبها وفضتها وماسها وياقوتها وكنوزها وعطاياها وهباتها، وبعدين يبقى يدخل النار عقاب صعب، ولذلك لا داعى للبكاء. بس كل ده مرهون أساسا بوجود نار. فيه ناس بتقول أن المرء لا يرضى بعذاب قطة في النار فكيف يرضي الله بإلقاء مليارات منهم فيها خاصة إذا كان هذا مقرون بمفهوم جبرى عن الوجود...

- لا اعتقد أن أبى أو أمى قد اتخذا موقفهم رغبة في الجنة.

- من قال ذلك، مؤكد رغبة في الصفاء النفسى لاختيارهم، أو عن إرادة في المقاومة والرفض، ربما كي يذكرا أنفسهم والآخرين بطاووسيه نحن آلهة بشرية.

تراجعت حبيبة تنظر له مندهشة كان يتحدث لها ومن خلفه امتدت الصحراء وزرقة السماء، لقد أصابتها الرعدة، فلأول مرة يخيم الظلام عليها لتجد نفسها وجوفها يناديها أنها في صحبة رجل.

- يبدو أنك مثقف. ليس فقط.. سياسي.
- لماذا؟ لأنى حدثتك خارج إطار الدين.
- هها.
- مطلقا الأمر يخص عصر المعلوماتية.
فوجئت به يهمس قائلا: حبيبة... أتشعرين بالغيرة من ليلي؟

رفضت بغضب دون أن تنكر كلية قائلة: ليلي مجرد طفلة تلهو بشخص أشعث الوجه، أشعر الصدر، تلوحه شمس الصحراء. البنات الأوربيات مغرمين بالجلد المحروق.

- ولكنك منفعلة للغاية... على فكرة أنا غيران منه.

نظرت له وهلة، ثم انفجرت بضحك هستيرى تماما كما كانت تضحك في الصباح... اعترفت في النهاية: أنا غيرانة من طاقتها العاطفية.

- أفهمك.
- طاقة مكنتها من أنه تمشى ورا مجنون.
- و أنت طاقتك، أقصد عاطفتك أين ذهبت؟
- فقدتها من زمن.
- لالالا!!!!!!.
- لم لالا!!!!؟
- لسه صغيرة على زمان تلك.

سألها: أحكي لى... تحبى...؟ ؟

هزت حبيبة رأسها وكتفيها وهي تدفع بصينية الطعام بعيدا عنها، وكأن شئ لا يهم. الحكي وعدم الحكي، هزرأسه مصرا: لتحكي إذن.

- عواطفي وضعتها في قنينة علاء الدين السحرية، وختمت عليها، وأسقطتها يوم عبرت البحر مع أبواى من الجز ائر عائدين إلى فرنسا في قاع الأبيض المتوسط بعد تطهير الجبهة من اليسار، لا أكاد أجزم الآن من الشرفاء، وفي فرنسا عكف أبي اليسارى على تربيتى تربية شرقية محافظة، بعدها صارعلى أن أنتظر فارسا ما، أحيانا عربى وأحيانا من البربر، وأحيانا ثورى دون أن يظهر أحد، تغيرلون الفرسان ، ما صاروا مثل أبى، عتدما بلغت السادسة والعشرين دون زواج، رجع أبواي خصيصا من أجلى إلى الجزائر، بيش يجوزونى على طريقة شرف البنت متل عود الكبريت لو ولعته مرة واحدة يصير ما أدرى شونو، وفي القصبة اغتيل أبوي وأختى الصغيرة ذبحا، فلعنت كل ما يمت للحياة بصلة.

انكمش مصطفي على نفسه أمام حزنها الرهيب، في هذه اللحظة دخل عليهم سيزاروعضلات وجهه ترتعد من القلق:

- ليلى وقيس محجوزين على حدود المنطقة، تتفضلوا فورا أحضروهم.

* * * *

- 11 -

أثناء العودة عند نقطة الحدود صرخ إلياس على الضباط: لقد وجدناه.

كان ينتظر شعورا بالترحيب والمساندة، ولكنه وجد الجنود على غير عادتهم يوقفونهم، من الذي نقل لهم أن الفتاة الفرنسية مغرمة بالملتاث، لا يدري ربما هو، وكان هذا سببا كافيا كي يمسك بهم فضول حاد نشأ فجأة، وسيطر عليهم وصعد بهم لحدود المأساة، إذ أطلت رؤوس كثيرة لقادة ينتمون لجيوش شاركت في الحرب، هذا طبيعى ويحدث أوقات الحروب، النساء والذكورة والجنس عملة نادرة تستدعى دائما مهماتها، فكيف بجيوش تنتمي لقوافل رحل وقد اجتمعت في نقطة لا تنتمى لآى منطقة في العالم من الصحراء.

في البداية كان الأمر شعور بالغضب لدى قائد إحدى الوحدات العربية الذي شعر بالغيرة تنهشه عندما علم بعثورها على قيس، وكان قد تبادل معها منذ أيام حديث بالفرنسية الأمر الذي أعطاه شعور بالتفوق على أقرانه من الضباط، ثم بدأ يهيئ نفسه كي يوطد من علاقته بها، فربما!! وخاصة أن الشوام قوادم في العلاقات الإنسانية،

مغاوير في ساحة الحرب، وقد تابع البقية ألعابه، وهم يمنون أنفسهم بالتفريج عن غربتهم بعيدا عن أوطانهم وعائلاتهم وتحولهم لمادة حية للشواء تحت سعير شمس الصحراء الملتهبة وقيظها الدامى، وخاصة بعد أن ركلهم الأمريكان في مؤخراتهم ومؤخرات قادتهم ليصبحوا خارج اللعبة، بعد أن انتفت الحاجة إليهم و انتهت مهمتهم السامية كغطاء أخلاقى احتاجه الأمريكان لدخول الحرب يعفيهم أمام شعوبهم من الاتهامات التي يمكن جمعها من القواميس السياسية التي طالها العفن.

دفع القائد أحد ضباط الصف للبحث عن وسيلة لتعطيل السيارة طلبا للمزاح سواء مع المجنون أو مع الفتاة، وقد تتفتق ذهن المساعد عن حيلة جهنمية مضحكة فقد طلب جواز سفره، صاح المساعد: سيادة العماد بده يتطلع على جواز سفره، صرخ إلياس: خيو... ما معه جواز سفر أصلا.

- بطاقة هوية، رخصة قيادة؟

- هذا مصاب حرب ما يملك أصلا ذاكرة، حتى يصير معه جواز سفر، وما فقط فقد هويته و إنما مثل ما حكينا هو فقد الذاكرة تبعوته يا أخى.

غاب المساعد، وفي هذه اللحظات ترجم إلياس ما دار بينه وبين المساعد لليلى وهي مندهشة، لحظات وخرج المساعد يطلب دخول قيس لمقابلة قائده لاستجو ابه.

صاح إلياس وهو يرى قيس يختفي في المكتب: من شان الله يا أخى هذا الفتى مريض، شو بده يتوقع، أنه يجده بذاكرة فقدت على رمال الهجير؟

في هذه المرة صرخت ليلى تنادى على أبوها في اللاسلكي:

- داد ساعدنى، أنهم يأخذون قيس منى، أنقذنى بربك. ثم قفزت من السيارة فأثار عريها جنون الجنود. لولا الانضباط لاجتمعوا يمزقونها، اكتفوا يغتصبونها بعيونهم. وطوال الساعة ورجال الأمن يسألونه عن هويته: ما إذا كان كويتى أم سوريا؟ دون جدوى، كانت إجابته الوحيدة: يا أخى أنا عربى، ما إلى هوية سوى أنى عربى، ألستم عرب؟

- نعم نحن عرب.
- طب وين القضية إذن؟
- مصرى من شبرا.
- كيف تكون شبرا هذه؟ حى من أحياء عبس؟ بطن من بطون ملوك بنى حمير؟
- لك ولـه... شبرا هادى تقع بمصر.
- فرع من فروع النيل؟

ضحك الضباط والجنود لخبله، فاستطرد: وبعد خبرونى يا خلان إلى أى قبيلة تنتمون؟

ازداد ضحك الضباط والجنود وجنونهم، صاح أحدهم: هذا مؤكد مخبول عراقى. فسأله الضابط بجدية: هل أنت عراقى؟

-ويا أخى ماذا تبغى وكيف أجاوبك؟
- هسة نحنا حرس على الحدود.
- وإذا قلت لك عربى ليش نقول مصرى وسورى وعراقى، هل قسمت القبائل الحدود وجعلت منكم حرسا عليها.
- مو عراقى؟
- أنا عربى من بنى عذرة.
- فأنت قيس العذرى، مرحبا خيو.

تقدم أحد ضابط الصف من أولئك القدامى الذين يتباهون بشواربهم غير آبهين بهزائمهم، مد يده فتش ملابس الفتى بطريقة مهينة وكأنه يعتوره كأنثى، اهتاج الجنود، دفع الفتى يده بقوة جعلت

المساعد يسقط على ظهره وسط سخرية الجنود فقام ينهال عليه صفعا بالأيدى والأرجل، وقد عزم على أن يستخرج أوراقه يستدل بها على هويته ولو من تحت جلده. اجتمعوا عليه يخلعون عنه ملابسه قطعة قطعة، قال المساعد للجميع والفتى عار كما ولدته أمه: والآن علمت أين يخبئ أوراقه... في مؤخرته...

بينما ليلى بالخارج لا تعرف ما يجرى في الداخل، انخرط الجميع في الفكاهة وتجمعوا في حلقة كبيرة حوله وارتفعت علامات السخرية والاحتقار، وقد قرروا النيل منه والتنكيل بأدميته، وعندما جاء مصطفي وحبيبة، بقيت حبيبة معها، وأسرع مصطفي يعلن عن قدومه وهو يتخيل ما يمكن أن يجرى للفتى، لكن ما حدث كان يفوق تصوره، وبينما كان يخرج بطاقته التي تعبر عن هويته ومهنته وعمله بالصليب الأحمر وأثناء حديثه لقائد الوحدة شاهد الفتى وسط الجنود عاريا كما ولدته أمه، نبه مصطفي القائد في قلق إلى ما يوشك حدوثه، فوجد جواب بالصمت واللامبالاة، شق طريقه إلى الفتى بصعوبة، والفتى يلم أطراف جسده من الذعر وقد خلفوه عاريا وشرعوا يفتشونها ويقلبون خرقه الممزقة بحثا عن أشياء مهربة أو سرية أسرع يحاول استخلاص الفتى من بين أيدى الجنود، شاهد المساعد ذو الشوارب يمد يده لمنطقة حساسة من جسد الفتى الذي دفع يده عنه بعنف، مما جعل صف الضابط ينهال عليه ضربا وركلا بالأقدام، كان المشهد واضحا للجميع، مكلل بالضحك والتعليقات، وبينما كان المساعد ينهال على الفتى العارى ضربا وركلا، ينكر عن نفسه تهمة لم يدعها عليه أحد:

- أيش تظننى أسوى يا تيس يا زامل.

أندفع دكتور مصطفي يحميه بجسده وهو يصرخ بقائدهم أنه سوف يقدم تقرير لوحدات الأمم المتحدة أن لم يتوقفوا عن الفورعن إيذاءه. أشار لهم العماد بالكف عن الفتى، ألقى مصطفي على الفتى

خرقه الممزقة وسرواله الكاكي وأخذه مسرعا للخارج، استقبلته حبيبة وليلى بارتياع، خفف عنهما وهو يعطى الفتى لليلى، أخذته وهي تبكي ما خمنت حدوثه، وأسرع يغادرون المنطقة العربية العسكرية يخيم عليهم الصمت والتوتر، حتى توارت ورائهم وسط الغبار...

عانت ليلى من اللوعة لا تدري ماذا جرى أو أسباب ما جرى، سوى أنها كانت تضم فتى مقرور يرتعش امتلئ جسده بالكدمات، والدم المخثر، بعد عشر دقائق قرب أحد المراكز العسكرية الأمريكية طلب منهم التوقف ونزل وهو يتقيأ من جوفه الدماء، مد له مصطفي وحبيبة يد المساعدة، عندما التقط أنفاسه دفعهم بعيدا عنه، وقام مبتعدا لا يريد ركوب العربة، تتبعوه وهو يختار بقعة نائبة حيث جلس وحيدا، ممتلئا بالدهشة، سألهم مصطفي أن يتركوه ينفرد بنفسه، جلسوا يحدقون به. بعد الساعة أقترب منه مصطفي بحمل له كوباً من الماء، حاول مصطفي الاعتذار لكن الفتى رفض اعتذاره، وصاح به: دعني وخل عنك اعتذاراتك.

- أنت لا تصدقني؟

قال الفتى يائسا: كيف يطلب العقلاء من المجانين أن يصدقوهم.

صمت مصطفي فاستطرد الفتى مشيرا إلى الأسلاك الشائكة التي تحيط بالقاعدة الأمريكية: قل لي أيها العاقل متى وجدت هذه الأسلاك الشائكة... من الذي أحضرها هنا... وما هي وظيفتها... أخبرني.

- الفصل بين الحدود.

- وهل كان هناك ما يفصل بين حدود هذه الأرض أيام كان المنذر ابن نعمان حاكم الحيرة؟

- لا.

- حسنا فهي ليست موجودة إذن.

قام الفتى وسار باتجاه الأسلاك وهو يصر على عدم وجود شيء أمامه سوى الصحراء، عندما فهم مصطفي ما يعنيه أسرع خلفه

يحاول منعه، دفعه الفتى بعنف فسقط مصابا على رأسه: لا توجد أسلاك شائكة لأنه لا توجد حدود.

لحقت بهما ليلي وحبيبة وقد بدأ حرس القاعدة في إطلاق رصاصات تحذيرية على الفتى وهو على وشك اقتحام الأسلاك الشائكة .

منعته ليلى في اللحظة الأخيرة من دخول حقل الألغام، وبالكاد جذبه مصطفي وتحامل عليه الثلاثة كي يعودوا به إلى السيارة وهو يردد: كيف وصل الروم إلى أرض تهامة، وكيف تمكنوا من وضع أعلامهم عليها، ومن أين توفر لهم الوقت لتشيد حصونهم وأن يخيموا بفرقهم العسكرية، وكيف يجتمع فرسان العرب والروم معا في وئام، هل اجتمع السم العسل؟ وإى خيانة هذه يا ليلى؟

قال دكتور مصطفي متعجبا: هذه الحدود رسمها الإنجليز والفرنسيين في اتفاقية سايكس بيكو، في مطلع القرن العشرين، وربما أقرتها الأمم المتحدة فيما بعد.

غمغم متعجبا: وهل اتحدت الأمم؟

نظر مصطفي متعجبا للسؤال، لكنه قرر مجاراته: نعم بعد الحرب العالمية الثانية في 1945.

- وتحت علم من اتحدت الأمم.

رفع دكتور مصطفي مستسلما وقد قرر التوقف عن المحاجاة: وقال من يتذكر؟ الآن على الأقل تحت العلم الأمريكي.

- نوع من الحيات هو؟

تطلع نحوه مصطفي وحبيبة مندهشين، قرر مصطفي الصمت، بينما أمنت حبية قوله قائلة: نعم نوع من الحيات القوية الشديدة الضرر.

* * * *

- 12 -

عندما وصلوا المعسكر نسوا ما حدث على الحدود، كانت ليلي هي الأكثر سعادة، دخلت المعسكر وهي تضم قيس وقد خرج المعسكر بأجمعه يستقبلها في الساحة الخارجية، كانوا يحيونها بالهتاف والصفير والتصفيق وهم يرفعون لها أصابعهم ويشيرون لها بعلامة النصر.

افترقت ليلى وقيس عن حبيبة ومصطفي والمعسكر يدفعها دفعا للداخل... بعد دقائق خلت الساحة من البشر وبقيت حبيبة ومصطفى، أمسك يدها وهو يأخذها خارجا إلى حيث تعودت ليلى أن تجالس قيس... صعد بها إلى قمة الربوة وعلى فوهة المغارة نظرا إلى الصحراء وخيمة من زرقة السماء تضيئها ملايين النجوم... تحدثا كثيرا عن أحلامه، عن جامعة عين شمس هذا الصرح الجامعى العملاق الذي انهار وتحول إلى طابونة للوراثة لا يستطيع فيه الفقراء ولا الموهوبين أن يحققوا لا أحلامهم الشخصية ولا أحلام الوطن، حدثها عن الطب الذي تحول حرفة تورث لتقتصر على كهنة الجامعة، حدثها عن التعليم الخاص، حيث كل شيء ظاهره ناصع وباطنه مظلم، حدثها عن وزراء يمضون حياتهم في جمع مئات الملايين ومليارات وتدمير

أضعاف مضعفة منها، وعقد الصفقات لحسابهم بدلا من حساب الوطن، حدثها عن بنوك سخرت ودائعها بالأمر المباشر لحساب أفراد، فتحولوا من معدومين إلى أصحاب مليارات. حيث تتقاسم الأموال مع رجال نافذين في سلطة البلاد.

وقالت له إنها في قرارة نفسها تسخر من العرب ومن تقاليدهم وتخلفهم العلمى والنفسى، وتتهمهم بأنهم عندما دخلوا بلادها دمروا البربر وأخذوا نسائهم سبايا، وهتفت ليعلنوا اعتذارهم على الأقل عما فعلوه، قالت له أنها تعانى من فساد هويتها، ليس كونها محل شك، ولكنها هوية مدنسة، محتقرة، وهي ترفض أن يقوم العرب الغزاة بحمل الآلاف من أمهاتها من بنات عرقها من البربر سبايا حتى ولو كان المكان دمشق فملعونة دمشق إذن، إذا كانت معرضاً للسبايا، وفي نفس الوقت لا تستطيع أن تكون أوربية خالصة، فهي تعانى الوحدة المطلقة والحزن المر. وهي تمر بأصعب فترات حياتها، وتقف على مفترق بالمنطقة المحايدة من أرض العرب وهي ترى الطغاة ينتهكون الأبرياء، والجيوش العربية تقاتل بعضها البعض مكللة بالأعلام الأمريكية أعدى أعداء العرب، والوجه المقنع لإسرائيل، بينما ترتفع الأعلام الإسرائيلية على التل متربصة بالجميع، والجميع يعمل في خدمة تل أبيب بحماس منقطع النظير، هذه الهوية فاسدة. وأى شيطان هذا الذي صنع هذه الحرب من أجل فلسطين، أو ضد فلسطين؟ وهكذا يشمت نصفي البربرى من نصفي الفلسطينى، الذي أشعر أنه في سبيله للاضمحلال لمقدمة لاضمحلال هذا لجنس الكئيب المدعو بالعرب، وكأنى نصفين أسدد من نصفي حساب قديم لنصفي الأخر. والنتيجة تقلص النصفين. سوف أعود لفلسطين... هذا ما عزمت عليه أخيرا.

- ماذا ؟!!

- إنها الطريقة الوحيدة كي أعيد الاتزان بين أجزائى المتصارعة المتهالكة. هذا هو الحل الوحيد... الموت في معركة الدفاع عن المقدمة

حيث ينبغى للمرء أن يكون، أفضل من مشاهدة أجزاءه تتلاشى فيضاف الشعور بالعجز والضآلة إلى ما سوف يحدث على أية حال...

كان الليل في ربعه الأخير مد مصطفي يده لها يجذبها كي يعودا للمعسكر قائلا:

- في الحقيقة منذ مدة و أنا أفكر.

ضمت نهديها بكلتا يديها متسائلة: في ماذا؟

- لبس قيس وحده هو المجنون في هذا المعسكر.

استدارت نحوه: ليلى!

- نعم.

أضافت: أنت مثلا.

ضحك وهز رأسه نفيا وأدار إصبعه علامة الاستمرار، ضحكت ونهديها يرتطمان به: أنت لا تقصدنى!

- أنت بالذات.

- ها.

- أنت بالذات... أجمل مجنونة.

- كدة يا مصريين مش قلنا مفيش رومانسية.

- أعمل آية غصب عنى.

* * * *

- 13 -

أثارت الحكايات التي حملت أنباء العراك الذي نشب بين ليلى الفرنسية وليلى العامرية، وبين ورد وأصحابه وقيس وإلياس وليلى واختفاء مقتفي الأثر من جهة أخرى، وكيف فتح قيس صدره طالبا من ورد أن يدفن نصل سيفه فيه، ذهول الجميع في البداية، ثم تلا الصدمة هبوط موجة عارمة على صخور شاطئ من الصمت وربما التفجير والدهشة والاستغراب والعجائبية وأخير الجن والسحر، ثم أعقبها انفجار من السخرية تحيط بحكايات الصراع الذي نشب بين الفتاة الفرنسية والمرأة البدوية وحيرة قيس المزعومة بينهما، فلما راح الذهول و انزاحت معه السخرية بقى التساؤل، ما الذي جرى على مدخل الوادى؟

قال البعض همسا: ربما الأمر يتعلق بأحد أجهزة الاستخبارات العربية يجرى لعبة ما سوف نعرفها بعد قليل. عقب أبو كريم الذي كان حاضرا اللقاء وهو يفتح فمه: وحياة أم أسنانى اللى راحوا ببيروت، هادى ألاعيب (مور انتلجنت)، ما يعرف بها حدا من أجهزة

الاستخبارات العربية، هادا يا أما تبعون اللى شو أسمه الموساد، يا أما تبعون هوديك ال .C.I.A وما في حدا غيرهم بالعالم يسوى غير هيك شغلات...

دكتور مصطفي قال لحبيبة عقب حوار تفصيلى مع مقتفي الأثر أن قبيلة بنى عذرة لا تزال في الجوار، وأن الفتى ربما بمحض الصدفة التقى بليلى وورد حقيقيين ينتميان لعام 1990.

همست حبيبة: ربما... دعنا نعود لأعمالنا.

طيلة الأسبوع التالى كان واضحا أن ليلى متلهفة لوصول الطائرة، وبدا على حبيبة القلق، فلما جاءت نظرت لمصطفي بإيماءة من رأسها وهي تشير إلى ليلى. نظر مصطفي إلى ليلى كانت تجرى برعونة ناحية مهبط الطائرات، تحرك مصطفي ناحية حبيبة متسائلا:

- ما الذي تتوقعينه؟

- وكيف لى أن أعرف؟

بعد قليل أضافت: لكن حاستى تقول لى أننا سنرى أشياء كثيرة.

- الصبر إذن، ولا تكونى عدائية تجاههما.

- قل لنفسك.

* * * *

في الصباح الباكر من اليوم التالى لوصول الطائرة فوجئ المعسكر بليلي تخرج من حجرتها ترتدى ملابس البحر وقد صبغت شعرها باللون الأسود وغيرت عيناها للون الأسود مستخدمة عدسات لاصقة، وطوال طريقها في ممرات المعسكر ممسكة بأحد ترجمات كتب الأدب العربى في أجزاءه الأولى ربما لكليمان، بينما أخر مترجم عن المعلقات، كان الجميع يحيونها بدهشة عاجزين عن إخفاء ابتسامات

واسعة، أبو كريم جرى يبحث عن إلياس عندما وجده صرخ قائلا: ها الفتى بده يصيب المعسكر بلوثة.

ثم أنها عرجت على قيس فأخذته في طريقها للعين الو اقعة في جوف المغارة ألى الربوة، وعلى حافة بركة المياه تمددت، وطيلة اليوم لم يتمكن أحد من الاقتراب منهما، وقد أقر الجميع ضمنيا أن الفتاة وجدت الفتى بنفسها بعد فقدانه وفقدانهم الأمل في عودته، ولهذا صار مثل السفن الموشكة على الغرق ملكا لمن ينقذها... كانت قد عزمت على الانفراد به، وقد أذهلها قبوله بالموت عشقا في سبيل امرأة متزوجة، هو على أى حال يحبها بجنون، وأن ما يثيرها إنها وأن كانت موضع لحبه فهي بديلة لها، بل هي جنيته على أى حال وملهمة شعره، كما قال البدو وهم يسرعون بالهرب من أمامها، ابتسمت بسعادة غير مصدقة... لكن يكفها حقيقة كل هذا الهوى المجنون الذي سوف تشفيه منه على أى حال، لهذا عكفت تسأله بحرص وهو نائم على ظهره يتقى بجسدها أشعة الشمس المتسربة من فوهة المغارة... كيف تسنى له وهو الشاب الممتلئ بالذكاء والحيوية أن يحب زوجة رجل أخر تخدعه وتسخر منه، امرأة بوجهين، وجه معه إذا خلت به ووجه مع زوجها إذ ابتعد عنها وناء. أعتدل في جلسته، متجهما و أفهمها أن الموضوع ملخبط في ذهنها، وأن ليلى كانت في الأصل له، ولكن هي سلطة الأب التي منعته عنها، وعاقبته وهو في هذا مرتاح لهذا العقاب، فقد أخطأ في حق العامرية عندما صرح بعشقها وهواها إلى البيد والصحراء والليل والنجوم والشمس والقمر، وكلها شواهد تفتن عن المحبين، أذاعت سره فكان عقابه هو أن يحرم من وصالها، وهذا عقاب طبيعى يستعذبه ويفخر به، ولو أن كل شقي عشق بنات العرب الأحرار وقال فيهن الشعر لضاع الشرف. وضاع الستر عن بنات العرب.

تراجعت عاجزة عن الفهم وضاقت بعينها وقد استغلق كل شئ على تفكيرها:

- انتظر لحظة من فضلك. هل أنت سعيد بحالتك تلك.

- أي حالة؟

- تحب امرأة ولا تنالها.

- وكيف وهي معى ليل نهار.

- لا... ليس بمعنى التخيل، أعنى تنالها جسديا... أنت وهي تصنعان الحب معا، يتعرف جسدك عليها ويتعرف جسدها عليك.

تراجع قيس باشمئزاز: عن ماذا تتحدثين؟

نظرت إليه دون أن تحرك ساكنا، ثم ألقتها في وجهه: أتحدث عن المضاجعة بين الولد والبنت، أتحدث عن الطبيعة وكل ما يجرى بها بين ذكر و أنثى، أتحدث عن ممارسة الجنس. .Making love

- و أنا لا أبالى بما تتحدثين عنه.

وكيف والذي لا تبالى به هو الأمر الطبيعى. أنظر الطبيعة تجدها لا تتغنى الجب فقط ولكنها تفعل الجنس وبحرارة، انظر حولك ترى كل زوجين اثنين ذكر و أنثى يلتقيان ويجتمعان.

- حسنا وبعد يا أختاه.

كانت تقترب منه وقد تهدجت أنفاسها وتلامس جسديهما:

- أما ما لا تبالى به هو الأمر شاذ وغير طبيعى.

دفعها مهتاجا يحاول الفرار وهو يصيح: وبلاه يا ليلاه... وبلاه... وبلاه يا ليلاه... وبلاه يا كثير عزاه، وبلاه يا لبناه.

جذبته ليلى بحسم ليجلس بجوارها وهي تبتسم متجاهلة ترهاته: يا عزيزى قيس، يجب أن تعرف أن العامرية لم تكن تحبك، إنما اشتهت الشهرة والمكانة التي رفعها إليها شعرك فجعلها في مصاف الخالدين.

رفض قيس مقولتها غاضبا: لماذا تحاولين النيل منها، ماذا فعلت لك يا امرأة. كفي عن غبائك وكذبك، كفي عن الوقيعة بيني وبين من أحببت.

- قل لي... كيف تمض أنت الليل طريد الصحراء وذرات الرمال والعطش والجوع وهي تمض الليل بين أحضان ورد ودفئه تؤانسه وتضع له العشاء ثم تضاجعه؟

- هذا ليس من شأنك.

- حقا؟

- حقا ولا تعاودى الحديث عنها.

- عجبا وهل تدخلت بينكما؟

ثم تذكرت فجأة فقامت غاضبة ولوحت بيدها في وجهه مهددة: كان ينبغى أن أتركك في الصحراء طعما لنصال ورد... هه.

- هذا أهون على ألف مرة مما تسميه التحام الجسدين هذا.

- و أنا لم أسمع في حياتى عن هذا الذي يسمى بالحب العذرى.

- مهلا. ليس هذا ذنب ليلى، فلم تبغضينها كل هذا البغض.

أجابته بعصبية وقد شعرت بالإهانة: أنا لا أبغضها... أنا حتى لا أعرفها، و إنما أنت الذي تثير شفقتى.

وقف وقد ثارت ثورته فبان إنسانه ضخما عملاقا هذا الذي أجرى الغصة في حلقها، لم تكن لتسمعه وهو يحدثها: ولم لا يثير قيس شفقتك وقد أثار شفقة التاريخ؟

مدت يدها تجذبه ثانية فتعثر ليقع بين أقدامها، أمسكت به بين ذراعيها وقفزت فوقه تغرز نهديها في صدره حتى تركتا علامتين صغيرتين

من الوهج، وهي تقبله قبلة طويلة عصرت فيها شفتيه عصرا، وبينما كان جسدها يذوب مثل قطعة حلوى ناعمة فوق جسد أجش كانت تصعد إلى السماء وتنسى كل شيء يحيط بها سوى جسد الفتى والرغبة المجنونة في أن تعتصر حلاوته الحارقة وتمتصها حتى أخر قطرة من السعادة والألق الضوئى، وعندما ظهر مصطفي وتمنت ليلى لو يتركها في حالها، وهو ما فعله، فقد رحل وأختفى، أما قيس، فقد ظل يطارد النار المشتعلة في جسده وكلما أطفئ وهج، جد تحت السطح وهج، حتى ضاع عقله وبقيت طراوة من الزهور تسحق جسده وهو يناديها لو تستمر في سحقه حتى النهاية عندما انبثقت الأرض سيل من الزبى العطرى الحلو...

* * * *

- 14 -

على الحدود الخارجية للمعسكر وتحت المطر الغزير، قاد إلياس السيارة الجيب وبجواره جلست حبيبة بجوار النافذة، وفي المقعد الخلفي جلست الطبيبتان ربيكا وإيمانويلا، بينما وقف مصطفي في قلب الصحراء يتابع قيس راكعا قرب الغدير يرسم خطوطه المتقاطعة على الرمال، لحظة اقتراب الجيب من البوابة الخارجية للمعسكر خرج سيزار من نافذة مكتبه ونادى إلياس: إلياس... إلياس... أنتظر.

سمعته حبيبة، التفتت للوراء رأت سيزار يلوح لهم بالوقوف، استدارت تطلب من إلياس الوقوف، وقف إلياس، ترى ماذا يبغى سيزار؟ بجوار سيزار مباشرة قفزت بلورة الفيروز تتجنب حذاءه، تحاول أن تفهم ما يحدث، عاد سيزار يشير لحبيبة أن تنتظر، وهتف: ليلى ستذهب معكم القاعدة.

صرخت البلورة: القاعدة الأمريكية. !! سوف آتى معكم ... انتظرونى.

من خلف سيزار ظهرت ليلي وعلى وجهها غضب مكتوم، حاول أن يقول لها تمهلى فهم ينتظرونك، لكنها تخطته متجاهلة إياه، وقذفت

حقيبتها إلى كتفها تحت الخطى باتجاه مدخل الإدارة، طرق جبهته محتارا يتابعها وهي تجرى باتجاه الجيب تفوح من رائحتها عبق الغضب، حاولت بلورة الفيروز أن تتعلق بحذاء ليلى، لكن سيزار الذي فوجئ بليلى داس على أحد أطرافها الدقيقة. صرخت دون جدوى وعندما حرك سيوار قدمه كانت ليلى قد بلغت السيارة.

تابعتها بحسرة وهي تصعد بتثاقل لتجلس في الكرسى الخلفي بجوار ربيكا، ابتسمت حبيبة بخبث: ألم يكن يرفض مجيئك معنا القاعدة، ما الذي غيره؟

أجابت بغضب: يعاملنى كطفلة.

حبيبة: يخاف عليك.

ليلي: مم؟

عبرت الجيب البوابة الخارجية سارت قليلا و اقتربت من مصطفى. أشار لإلياس أن يتوقف. أوقف إلياس اللاند روفر، كانت حبيبة أمام مصطفي مباشرة وقد تبلل جسده بقطرات المطر، أناخ ذراعيه على النافذة وسألها بابتسامة عريضة: على فين؟

- نبو القاعدة الأمريكية

- لم؟

- سنتسلم طرد طبى عاجل وصل من سويسرا.

- الدواء اللى طلبته في الطرد ده.

اعترضتهم ليلي: لمن هذا الدواء؟

أجاب مصطفى: صديقنا صاحب الحب العذرى؟

صاحت ليلى: تعلم أنه يرفض العلاج الإكلينيكي.

- إذا أردنا نتائج سريعة لابد من التدخل الإكلينيكي.

مال دكتور مصطفي برأسه للخلف واستطرد معرضا بليلى: فيه ناس مش ح يعجبها الكلام ده، عموما سوف نقنعه أولا.

نظرت ليلى إلى الأمام وقد زمت شفتيها بغضب: وإذا هرب ثانية؟

أجاب بلؤم: ما عادش يهرب، قلبه أسير المخيم وأصحاب المخيم.

هزت ليلي رأسها ورسمت على وجهها اللا مبالاة، وكأن الأمر لا يعنيها، طرق السيارة عائدا للوراء وهو يحدث حبيبة: تعالوا بسرعة لا تغيبوا.

نظرته من طرف عينيها وقالت برعونة: لية؟ تخاف علينا دكتور؟

أجاب بجرأة: وبالأخص أنت.

صفر إلياس بمرح وهو ينظر من زاوية عينيه لحبيبة: هوهو هوووووه. مبين الصنارة غمزت.

تجاهلت إلياس وشدت صدرها للأمام مبتسمة برضا وهي تنظر في الصحراء خط الأفق، قال إلياس معرضا بها: والله عيونى عليك دكتور مصطفى، بعدك تهز قلوب الحجر.

مصطفى: مع السلامة.

حبيبة: باى.

إلياس: معك السلامة خيو؟

خاضت الجيب في مدقات الصحراء، وغاصت ليلي في الصحراء بعينيها وهي تحدث حبيبة: لطيف.

- من؟ دكتور مصطفى؟

- We.

- لا أدرى... أحيانا أشعر أنه متبلد الإحساس.

- أنت أيضا...

- أنا!!!

- أنت بالذات.

- No هذا هجوم حاد، ماذا فعلت لك؟

- تتأمرين على.

- أنااا!!! لالالا... من أوحى لك بهذا الشعور؟

- ممكن تقولى لى. لم أرسلنى سيزار معك؟

- بصراحة حاولت الهرب منه.

- كنت تعلمين إذن؟

- نعم، عموما الموضوع بسيط، هو يختار أهون الضررين.

- لا أفهمك؟

- سيزار يحبك، وله الحق في أن يقلق عليك، أنت صغيرة جدا على لوعة الحب.

- على حد علمى أنت لست عجوز.

- ولست مجنونة؟

- أفهمينى؟

في البداية كان يخشى عليك من الجنود الأمريكيين، ولذلك كان يتحاشى ذهابك معنا للقاعدة الأمريكية، تجربة حب فاشلة مصحوبة بطفل بيبى من أحد بغال جنود المارنيز!! كارثة ... لست مؤهلة لأمومة مبكرة.

- والأن؟

- أههه... الآن أنت معرضة لتجربة يمكن أن تنتهي بيك لمصحة أمراض عقلية أو الانتحار أو دير في جنوب رينس.

- كذا!! لهذا الحد أنا في خطر؟ لذلك يرسلنى معك القاعدة. وماذا على أن أفعل؟ أبحث عن بغل هناك؟؟

ضحكا بحرارة واستطردت حبيبة: أعتقد أن سيزار أصبح يرى أن بغال المارينيز أرحم من عذرية المجنون.

ليلي تضحك بعنف. تصرخ: No.

حبيبة : YES .

- NO

- YES

* * * *

في مبنى بريد القاعدة الأمريكية وقعت حبيبة على استلام الطرود، حملها إلياس إلى مؤخرة الجيب، وعلى ناصية الرصيف الخارجي للمبنى المواجهة لمبنى البريد وقفت ليلي تنظر حولها... كان ثمة جنديين أمريكيين من الشرطة العسكرية أحدهما أسود برتبة سيرجنت والأخر عريف يمران حول ليلى يتفحصاها ويبتسمان لها. ابتسمت ثم استدارت للناحية الأخرى تحاول أن تتجنبهم، في هذه اللحظة اصطدمت بشخص بدا لها غير أمريكي تماما، أعتذر لها على الفور، وهو يفجاءها بلغته الفرنسية وهو يقدم لها نفسه:

- بردون مدموازيل. أنا أسف.

- أوكي . أنا اللى آسفة لم أكن في حالة تركيز.

- تفكرين بعمق، ولكن دعينى أخمن. فرنسية.

- نعم

- غرب فرنسا؟

- نعم.

- لحظة واحدة ... اللوار الأعلى.

- نعم. كيف تعرف كل هذا؟

- عطرك.

هزت رأسها تنفي بحزم: لا، أنا أستعمل عطور إيطالية.

- أعرف ... والآن خبريني كيف لفرنسية ألا تستخدم عطور بارسية، هل تتخفين من شيء؟

- وهل يمكن للعطر أن يبوح بشيء، أو يخفيه؟

- أشياء كثيرة، يجب أن تعرفي أن كل الأشياء جعلت في الطبيعة كي تكون وسائل لإخفاء أشياء أخرى، هذه الصحراء مثلا تبدو بسيطة ممتدة على مرمى البصر، لكن حذار فهي سلسلة من الشراك الخادعة. وجميعها تخفي أشياء معقدة.

تنهت، سألته برغبة في المعرفة: أو تظن ذلك؟

- ثقي في. إنها ليست تعبيرا عن البساطة قدر ما هي تعبير عن التركيب الذي يوحى بالبساطة.

مد يده يقدم لها نفسه: ملازم تيفرنية. ضابط اتصال الوحدات الفرنسية العاملة في قوات التحالف وباحث في علم الأجناس.

- لهذا السبب.

- عرفتك من لكنتك.

- لكنك ماهر جدا.

نظر للسيارة وقال: الصليب الأحمر بالأرض المحايدة. وليلي تقدم نفسها: ليلي.

- مرحبا ليلي. لماذا لا نراك في الحفلات التي يقيمها الملهي الليلى، أستطيع توصيلك لى مخيم الصليب الأحمر أخر الليل، فضلا عن أنه لدينا أماكن كثيرة للنوم، صديقاتك يحضرن كثيرا.

رأت حبيبة تخرج من المخازن حيت تفرنيية راحلة: أعرف... سعدت بمعرفتك لكنى ينبغى لى أن أرحل.

جرت ناحية حبيبة وكأنها تهرب، ولما بلغتها سارت بمحاذاتها باتجاه الجيب دون أن تلتفت إلي الوراء، سمعته ينادى عليها:

- عيدينى أنك ستأتى. استطرد مؤكدا: لدينا شلة نسهر سويا.

استدارت مرغمة تنظر باتجاهه دون أن تدع عيناها تلتقى به وصاحت: أعدك؟

ابتسم وهو يقرر بلهجة سعيدة: الدعوة تشمل الأفريقية.

قفزت ليلي إلى الجيب، سمعت حبيبة تدمدم: يقصد العبدة السوداء. يلا يا إلياس . خلينا نخرج من هنا.

- بدنا نستنى مانويلا وربيكا

- عارف هم فين؟

- عارف.

- وبعد؟

- لك أروح هونيك وأزمر عليهم بلكي يطلعوا.

دارت الجيب في أرجاء المعسكر حتى بلغت ناصية مساكن الضباط، دق نفير الجيب، وهلة وخرجت ربيكا ومانويلا وكلاهما تستكملان

ارتداء ملابسهم على عجل وتعدلان من شعرهم وخلفهم ضابطين أمريكيين شابين. أحدهما صديق ربيكا الأسود.

تبادل الأربعة القبل بحرارة. قبل أن تعاجلهم حبيبة بنفير أخر، صرخت ربيكا في حبيبة: جايين جايين، قليل من الصبر.

ثم عادتا تتبادلان القبلات: باى هونى.

الضابطين الأمريكيين: باى دارلنج.

أسرعت الطبيبتين للناحية المقابلة، قفزتا للجيب، وكلتاهما تلوحان لصديقهم بالأيدى والقبلات الطائرة.

* * * *

عندما عادت حبيبة وجدت أبو كريم بانتظارها وهو يصرخ: دكتورة حبيبة. دكتورة حبيبة...

- ايش فيه أبو كريم.

- مكتوب إلك من الضفة.

تساءلت بحذر: مكتوب من الضفة. مين بده يبعت لى مكتوب من الضفة.

- هادا من بيت الزعنون.

- هادا بيت أمى.

قال بدهشة: أمك! أنت فلسطينية دكتورة حبية.

قالت بنبرة تحوى نفيا: أهل أمى ...

- أهل أمك من الضفة، هادى أنت فلسطينية.

- أنا ما أنكرت، لكن كنت ما بعرفهم.

- يا عيب الشوم، مين ما يعرف أهله.

قالت بنفاذ صبر: أبو كريم، هادى أمى ما راحت ع فلسطين من أصله، ولدت بفرنسا وماتت بالجز ائر.

- أمك ما راحت ع فلسطين أنت بتروحى ع فلسطين، وبعدين بيت الزعنون ناس قوادم كتير.

- ليش بتعرفهم أبو كريم.؟

- أمال ... بينا وبينهم صلة نسب وقر ابة.

- مين تعرف فيهم؟

- تقولى أنت؟

- ما بعرف فيهم غير جدى أخو لجد أمى.

- أحكينا أسمه لنعرف لمين يطلع.

- أنا حتى ما بعرف اسمه وريني لنشوف الجواب.

طوال اليوم والأيام التالية لاحظ المخيم بأكمله أن دكتورة حبيبة قد طرأ عليها تغير حاد، إذ بدت على غير عادتها قد غادرت انطوائها وأصبحت أكثر اجتماعية، قال إلياس لأبو كريم لعلها تحب، فأجابه بلهجة العارف: حبيبى القضية مو قصة حب.

- أحكي تانشوف.

- دكتورة حبيبة لقت عيلة جديدة.

- فين بالسوق. أشترت كيلو من العائلات المستوردة ولا اتبنتها أسرة أمريكية.

- با أخى لسانك متبرى منك. قول كلام مليح.

- خبرنا تا نشوف.

- يا أخي أهل أمها بالضفة بعتولها مكاتيب من شان تروح لعندهم.

- وهي بتروح.

- نعم بتروح.

- و أيش عرفك؟

- بالأمس سألت سيزارعن ميعاد أجازتها.

- بتروح باريس لكان.

- لو تصبر...

- صبرنا...

- اليوم قالت أبو كريم بتاخد أجازتك معى، قلت لبش دكتورة، قالت لى بنروح الضفة سوا.

- يا الله بلكي تهدا البنية.

- جدها لأمها رجال معروف. كان من قادة الجبهة الشعبية. لجورج حبش. وترك. أنا بعرفه.

- ليش ترك؟

- لما أن سوريا ضربت الحركة الوطنية ودخل شارون وصار اللى صار بحصار بيروت، ورحلت المقاومة عن لبنان، ما عاد للمقاومة حدود مع العدو، ولذا ما صار للمقاومة إنه تقاوم، وحدث اللى بدهن الجماعة إياه.

- أى جماعة؟

- جماعة الأسد، بدن يمسكوا أوراق اللعبة وما يتدخل أحد في المنطقة تبعتوهن...

- وشو صار؟

- صار خلبصات بالمقاومة ساعتها لم الرجل حاله ورجع لمرته وأولاده، وقال أنا ما بعرف هيك أشغال.

- والآن بد الدكتورة حبيبة تسافر للضفة.

- أية للخليل.

- بتوحشنا أبو كريم، ما تنسى تسلم لي على القدس، و أقرا لنا الفاتحة بكنيسة القيامة.

- ليش أنا مسافر بكرة!

- مو هيك بتقول.

- سيزار قال لها مو قبل أربع شهور.

* * * *

- 15 -

طيلة ثلاثة أيام ظل المطر يهطل بلا توقف، وفي باطن التل طفق الماء يصعد من جوف الرابية، وعندما توقف المطر، كان ثمة مغارة تحوى في داخلها نبع ماء صافية كالبلور، تحيط بها بركة واسعة، والشمس في الربع الثالث من السماء، وليلي في البكينى تسبح بحرية، تتقلب على ظهرها وجنبها وقد تركت نهديها يخبان على سطح الماء. وقيس أمامها يجلس على حافة البركة ينشد لها الشعر:

أيا ويح من أمسى وقد ضاع عقله

فأصبح مذهولا عما يحيط به

إذا ذكرت ليلى عقلت من عذابات عقلى

فو الله ثم والله إنى لذائب

أفكر ما ذنبى أليها وأعجب

ووالله ما أدرى علام يا ليلى قتلتنى

وأى أمورى فيك يا ليلى أركب

أهرب حتى لا أرى لى مجاورا

أم أبوح بسرك فِأغلب

فأيهما يا ليلى ما ترضينه

فأنى لمظلوم وأنى لمعتب

صاحت به وهي ترشه بالمياه: اللعنة. أنت مجنون كما يقولون؟

رأت الدموع تترقرق في عينى قيس وهو ينشد:

قالت ... أمجنون أنت...

قلت لها الحب أعظم مما بالمجانين.

الحب لا يفيق صاحبه

وإنما يصرع المجنون في الحين.

ارتعد جسدها لدموعه، وهي تشعر بخطئها، صاحت:

- ما الذي فعلت؟ أنا لا أفهم شيئا.

أشارت له بإصبعها أن يأتى نحوها: تعال...

سار في مياه الغدير باتجاهها كالمغمى عليه ، سألته أن يجلس بجوارها: أجلس.

جلس القرفصاء على مبعدة فاقتربت منه مستفسرة: قل لى مسيو قيس. أتحبها كل هذا الحب؟

هز رأسه والدموع تنثال من عينيه. حدثت نفسها تلومها:

- ماى جد (My God) سيبكي ثانية.

استدارت إليه: ولكنهم قالوا لى أنك طيلة حياتك لم ... يا ربى ماذا أقول له؟

(You ever never make love to here ... فاهم يعنى...

- فاهم...

أمسكت يده بحنان وقالت في إخلاص: مش ممكن مسيو قيس... دا شئ مريض.

تراجع للوراء يحاول الهروب من الحمى التي بدأت تشتعل في جسده وقال: يحيط بنا النور بهاء فهل نمسك به، ويعبد البشر ألهتهم فهل لمس عبدا معبوده؟

صدمتها إجابته، مالت نحوه بجذعها وقد أمسك هواه بتلابيبها: أهذا ما تسمونه الحب العذرى؟

قال يحاول التراجع: والعذر كل العذر أن لم تعذرى.

لكنه كان ملقى على الأرض أسيرا لها، دفعته في صدره بعصبية: بس أنت مغفل كبير. ورد بنفسه قال لك إنه يمارس الحب مع ليلى.

- ومن لا يحب ليلى، حتى الهواء والنجوم تحب ليلى.

لا مش حب المجانين أمثالك، أقصد أنه يمارس الجنس معها، ألف مرة ومرة، ورد قال هكذا، و أنت تحاول أن تهرب من الحقيقة المرة دى، أين أنت مما يفعلاه سويا؟

هز رأسه علامة عدم التصديق: من؟

ضربته ثانية في صدره بغضب: ورد وليلى.

- ماذا يفعلان سويا؟

- يمارسا الحب سويا، لا لنكن أكثر وضوحا. يمارسا الجنس، ألم يقسم لك بأنهم فعلا ذلك مرات ومرات.

شعر بصدره يضيق، والحمى تسرى في أوصاله، وليلي تطارده، أشياء كثيرة منها تلامسه، دفعت صدره بإصبعها متسائلة: لست أفهم

كيف يعشق اثنين كل منهما الأخر دون اندماج جسدى، أليس الحب اندماج وتوحد؟

أمسكت بيده ثانية ووضعتها على قلبها: مثلا... قل لى كيف يشعر من يحب برعشة كف محبوبته وهي تسرى في روحه إذ لم يحتضنها، إذ لم يأخذ الرجل في كفه الضخمة القوية يد الأنثى الرقيقة، كيف يشتعل اللهب في جوفنا إذ لم نسمع دقات قلب المحبوب وهي تعلن ترحيبها بقدومه، بدخولها في مجال تأثيره وجاذبيته القاهرة...

تراجع للخلف يحاول الهرب منها دون جدوى، سقط على ظهره متعثرا، كان هذا ما تنتظره فقد اندفعت مثل طائر يهبط عشه لتسقط على صدره العارى، أخذت يده ولفت بها خصرها بعجلة قبل أن يفلت منها وهي تستطرد: إذا صدرى لم ينصهر في صدرك، وساعديك لم يعصران جذعى.

نامت على صدره وهمست: إذا لم أنم على صدرك بعد يوم طويل. كيف لى أن أعرف إنك تحبنى؟

تنهدت في راحة وقد ظنت أنها كسبت قضيتها، لكن صوته البارد جاءها همسا أيضا: أيا ليلي ألا يكفي الشعر؟

أجابت مستسلمة: عيون ليلي يكفى.

- أو تخونين ورد.

انتفضت غاضبة: ورد مين؟ مفيش ورد.

انسابت الدموع من عينيه، همست لنفسها: تبكي من جديد!... يا ربى ماذا أفعل معه؟

ترفقت به، جذبته برفق: تعال ... أنت أسطورة و أنا مفتونة بها.

التحم الاثنين في عناق حميم. دارا في المياه وليلي تهمس بالمجنون: أدفع عمرى مقابل أن أجد حب في هذا الزمن مثل حبك للعامرية.

تعال... تعال أيها المحبوب و أنسى الخيانة، تذكر فقط تلك التي تموت وجدا بك، تذكرنى أنا التي تحبك، أنا المفتونة بك المجنونة في هواك.

والظلام يحل على الصحراء، ضحكت ليلي من الوجد والسعادة وقد استسلم الفتى لها أخيرا، واستلقت وسط مياه الغدير تحت خيمة من أضواء النجوم، وقد امتلكها وملئها مثل ثور أسطورى سماوى قوى، هتفت: أيها الفتى الجميل، أيها البهاء، أيها السناء، أيها الضوء، أيتها الروح، كيف تشعرنى باكتمال الوجود في حضرتك، أى وآلهة السماء لو أن عذراء التقت بك على صخور جزيرة كريت، أو سهول أثينا لصرخت فقد لقيت زيوس رب الأرباب... أو أن امرأة من نساء ملوك طروادة شغل زوجها عنها بالحرب، وجئتها لفتحت لك حصون جسدها وانهارت طواعية، غير عابئة بالفضيلة، ولقالت جاءنى أبولو فكيف لى بالمقاومة، يا سيدى تعال ليس لدينا نحن النساء بقوة على مقاومة آلهة الجمال، و إنما صنعت صدورنا وخصورنا ونهودنا من أجلهم فأقبل ودعنى أضمك بشفتى وأعصرك بساقى ولا أتركك إلا وقد بزرت بذرتك في حقلى تنمو في جسدى شجرة سرو عملاقة، فإذا رحلت أيها المقدس تبقى لدى ذكراك حتى الموت... فتعال يا ألهي ... تعال أيها المجنون امتلكنى... تعال أنا العذراء المفتونة بك وبعذريتك، أى قوة سوف تملئ بها أى سيل جارف سوف يجتاحنى، أى صاعقة سوف تهبط على من السماء... لا لأ يا مجنون... أين تذهب؟

قال وهو يتراجع للخلف: لا أريدك أن تظنى بى الظنون، و أنا لست مثل هذا المخادع المخاتل زيوس.

- كما تشاء... كما تشاء ولكن لا ترحل، ماذا تعرف عنه، تعال ولا تخشى شئ، أن زيوس هذا هو رب أرباب الأوليمب عشقته كل نساء الأرض وعشقن قوته.

- و أنا لا أريدك أن تشبهينى به.

- أو تستكثر على نفسك أن تكون رب الأرباب و أنا مجرد إنسية بشرية من بنات الأرض.

- لا لو شئت أن أتيك ألها فلن أكون ألها مخادعا مثل هذا الزيوس، إله يعلم كيف سيدمر أوليفه ولا يرأف بها، ألها يرى الجميلات المحصنات والعذراوات الساذجات مطامع لشهواته التي لا تنتهي، والخيانة تاج يكلل صولجان ألوهيته، قولى لى بربك كيف يكون ثمة إلها فاقد للأخلاق، والعذراى فاكهة محرمة يشتهين مثل سكير متخم بنضارتهن وكأنهن ثمرات بستانه، يمتصهن ثم يتفلهن وراء ظهره غير آيه لعذابهن، وقد حولهن سخط زوجته المعذبة بترهاته إلى أحجار وأنهار وبحيرات وجماد. لا أفهمك، لم بشتهي المرء عذابه؟

تراجعت ليلى وقد أفاقها جدية حديثه من نشوة الهوى وبدت أمامه كطفلة يؤنبها معلمها، همست وهي تجذبه ناحيتها: يا ألهي لقد صدقت، لم أكن لأرى الأمر من هذه الزاوية الحصيفة، كم هو إله دنئ هذا الزيوس... أخطأت يا معلمى، ائتنى كيفما شئت.

لو رغبت أن أتيك على شكل الصورة الأصلية للثور الإله لقدمت لك على صور آلهة المصريين.

- ولم يا معلمى؟

لأنهم من دون كل الآلهة لم يخونوا نسائهم قط.

- فتعال إذن. أسرع و لا تتأخر.

- ثور أبيض هو الإله أوزوريس.

- بقرة بيضاء كانت الألهة إيزيس.

- وبينهما ولد الكون.

- يا ربى... اللعنة على زيوس وجبال الأوليمب.

استطردت بأسى: ولكن كيف عرفت كل هذا؟

قبل أن ينطق أغلقت فمه: حبيبى... لا أريد أن أعرف شئ سواك.

* * * *

جاء الصباح قاريا باردا، وبينما عكف مصطفي يجمع أوراقه من فوق مكتبه، شاهد إلياس يمر من أمام باب المكتب مفتوح، نادى عليه، أجاب وهو يدخل المكتب:

- عيون إلياس.
- أرأيت المجنون.
- خيو بالمغارة.
- وحده.
- معه السنيورة.
- بعدين يهرب تانى.
- ما عدش يعمل هاى الشغلة.
- و أيه اللى مطمنك قوى كده؟
- مو علق بالعصفورة. عليش بده يطير.
- مين؟
- ليلاه حبيبى ... ليلاه.
- معك حق... كثر المجانين بالمعسكر.
- هادا اللى مزعلك؟
- و أيه اللى ح يزعلنى؟
- كتر الشغل وقلة الأجر؟.
- لا يا أخى. من ناحية الشغل أنا أحب الشغل. لكن عندما يكون شغل مش لعب عيال.
- بدك مجانين بحق وحقيقى؟
- دلنى عليهم.

- كل من كان من حولك عاقل صار هو المجنون. وكل من كان في ها الزمن مجنون بيصير هو العاقل.

- اى والله معك حق، طول عمرى أقول اللبنانية فهمانين.

حيى إلياس مصطفي تحية شبه عسكرية: شكرا كتير على هيك مجاملة.

- يلا ... أنا رايح له.

* * * *

غادر مصطفي المخيم باتجاه الغدير حيث شاهد قيس جالسا على حافة الماء يكتب على الرمال أشياء كثيرة لم يراها، كانت جميعها معادلات رياضية عميقة، وبجواره ليلي ترى مصطفي مقبل من بعيد. نادت عليه: دكتور مصطفي تعال هنا.

- أين أنتم مختفون؟ أبحث عنكم.

سمع قيس صوت مصطفي فأسرع بمحو كتاباته من فوق الرمال. طرق مصطفي كتفه وقد لاحظه وهو يزيل أثار كتاباته، سأله: فيم تريدنى يا طبيب النفوس المعذبة.

- بيننا عمل كثير.

وقفت ليلي وقد قررت الرحيل، سألها مصطفى: إلى أين ترحل الظباء؟

ابتسمت وتنهدت: أتركك لعملك. على فكرة توجد دعوة لنا لحضور حفل راقص في القاعدة الأمريكية.

- Tres pien.

- أفضل لو يكن معى صديق. تعلم سلوك الجنود عندما تكون الفتاة وحيدة، يحدث لهم هوس جنسى وعادة ما يطمعون بها...

- معك حق.

- لهذا أود أن يكون معى صديق.

اعتقد مصطفي إنها تدعوه للحضور، لاحظته ينظر إلى ملابسها البارسية المودرن التي تكشف عن فخذيها وصرة بطنها، شعرت بأن قراره بالموافقة مصحوب بكونه يمنى نفسه بصحبة ممتعة، قال بخيلاء وثقة: أنا تحت أمرك.

نظرت للسماء ترجو المعونة كي تساعدها على فهم العرب، عادت تفسر ما تقصده: كنت أفكر في شخص آخر.

شله الارتباك والحرج وغمره العرق البارد، في البداية لم يفهم الشخص الذي تقصده:

- طبعا أى شخص ترغبين في صحبته. أضاف بغباء: بعد استئذان سيزار.

نفثت لهب من صدرها وهي تطرق جبهتها من الصداع الذي أمسك بها وهي تهتف:

- مستحيل أيها الناس كيف تفكرون؟

طفا على وجهه معالم الحيرة، استطردت وهي تنظر إليه من طرف عينيها: قيس ممكن؟

صاح منزعجا: المجنون! طبعا لا... وعقب معتذرا: هذه مسئولية؟

هزت رأسها متفهمة ورحلت وهي تغمغم بنبرة عدم تصديق وقرف:

- مسئولية؟ أوكي أنا آسفة.

* * * *

الجزء الثاني

القنـــــاع

- 16 -

في مكتب سيزار وداخل جهاز إرسال القمر الصناعى تمددت بلورة الفيروز بارتياح وهي تشعر بالمتعة الفائقة كفتاة تتناول جرعتها من الهيروين، وهي في قمة النشوة، ومن ساقيها الصغيرين كانت تمتص أخيرا من مأخذ الكهرباء الخاص ب **mother board** الطاقة التي تبحث عنها، فتحت في ساعدها لوحة صغيرة، أدارت أرقام معينة وعندما أضئ أخيرا مصباح صغير باللون الأزرق ابتسمت بارتياح وضغطت مفتاح الدخول.

دمر انفجار عنيف لوحة الجهاز و انتفخت بلورة الفيروز. صاحت بفجور: ها. ها قد عدنا لعالم الكبار أخيرا.

* * * *

عندما فتح سيزار باب مكتبه هذا الصباح فوجئ برجل غريب لم يسبق له رؤيته من قبل، يجلس على مقعده يتحدث في التليفون. فكر... متى جاء ولم تصل لا عربات البريد ولا طائرة المنظمة، لم يقنعه

وجود شخص لا يعرف من أين جاء في هذه الصحراء القاحلة، ولكنها والأكثر غرابة ملابسه، قبعة الغرب الأمريكية، لالا لم تكن كذلك، ولكنه جاكت البزة البيضاء بخطوطها الطولية السوداء وبنطاله الأبيض جعله يفكر هذا الرجل من بائعى الوسط الأمريكي المتجولين... كيف استطاع الوصول من وسط القارة الأمريكية للمنطقة المحايدة بصحراء الربع الخالى؟!! لكنه بقبعته تلك ودخان سيجاره هو أقرب لرجال عصابات الثلاثينات بشيكاغو... اهتز عند هذه الفكرة ووقف لا يدرك ما يحدث أمامه بالضبط...

تنحنح سيزار، رفع رجل الوسط الأمريكي رأسه ونظر إليه بابتسامة أدهشت سيزار، فمه الواسع، ليس فقط فمه شديد الاتساع، لكن لون الوجه. كان في اخضرار طحالب مياه البحار ذات الشواطئ الصخرية، ربما جاء من بحيرات ميتشجن، ربما من غابات الوسط الأمريكي، وقف الرجل وغادر مكانه على مكتب سيزار وتحرك إلى الناحية الأخرى من المكتب، مد يده لسيزار بتبجيل وتحدث بفرنسية سليمة:

- أعذرنى مسيو سيزار على وقاحتى كان يجب أن أحدث القاعدة الأمريكية لإرسال سيارة تحملنى من هنا.

- لم أتشرف بمعرفتك.

قال بدهشة وهو لا يتوقف عن إنتاج ابتسامته الواسعة: ألم تعرفنى؟

- لم يسبق لى الشرف.

- No... No... No... No, I'm the mask.

- The mask! Who is the mask?

لم يتوقف عن ابتسامته وقال بشجاعة: لن تحبطنى مسيو سزار، أنا أعرفك على أى حال.

- و أنا لا.

- ألا تشاهد التليفزيون يا رجل؟

- أشاهده.

- حسنا أتعرف الرجل القناع؟

- أعرفه؟

- أنه أنا.

- ما علاقة أفلام الكارتون بغريب يقتحم مكتبى ويعبث في محتوياته. هل تسخر مني؟

- مطلقا... مطلقا... الأمر كله ليس به أى سخرية، اعتقدت أن الناس كلها تعرفنى.

- أعذرنى أنا من جيل تان تان وتوم وجيرى.

- .No هذا قديم جدا مسيو سيزار، الآن ينبغى أن ترى عالم الكرتون الجديد.

- وما شأنى بهذا مسيو ماسك... أريد أن أعرف ما سبب وجودك وكيف دخلت مكتبى؟

- ألم يخبرك أحد عن سبب وجودى، على أى حال هذا ليس خطأ رجل الأمن فهو لم يتمكن من رؤيتى.

- So?

- So... أنت رجل جاد ولا تحب المزاح، تريد أجوبه حتى تتفرغ لعملك.

- أنت لا تعرف أسمى فقط!

- أنا الرجل القناع.

- لقد ذكرت ذلك توا.

أوكي... نحن هنا نمثل فيلما عن حرب الخليج. وقد تركنى طاقم التصوير في الصحراء قريبا من هنا، وأنا أنزل من طائرة هليوكوبتر أثناء إنقاذ فتاة فرنسية من أحد سجون العراق.

- فتاة فرنسية؟

- تدعى ليلى.

- تدعى ليلى؟

- في السادسة عشر من عمرها.

- في السادسة عشر من عمرها؟!

- ودورى هو إنقاذها.

قال سيزار بامتعاض وهو يشعر بتفاهة الفكرة: ولكن وجهك ؟؟

- مادة غريبة تزول بواسطة مسحوق خاص يوجد مع الماكيير، والآن هل تسمح لى أن أكمل محاولة الاتصال به في القاعدة الأمريكية؟

أجاب سيزار باهتمام: بالطبع بالطبع أنت ضيفي تستطيع الاتصال.

- أشكرك.

مد القناع يده يأخذ التليفون من مكتب سيزار، بينما ذهب سيوار ليجلس على مكتبه، هناك لم يكن ليستطيع أن يفهم كيف يتمكن ضيفه من مد قدمه أو أطالها.

* * * *

تركت ليلى قيس لمصطفي وغادرت المكان متأففة بغضب إلى مكتب سيزار وهناك وجدته جالسا يستقبل رسالة من الفاكس، بينما ذلك الشخص ذو اللون الأخضر جالسا ممسكا بملف يهوى به عن نفسه

حرارة الطقس. حيته فقام على الفور يقبل يدها ويقدم لها نفسه، ضحكت عندما علمت أنه مجرد دوبلير لشخصية الماسك بالفيلم الذي يقوم بتمثيله، سألها سيزار وهو يقرأ الفاكس أن ترتب له بعض الملفات بأعلى خزانة المكتب... دمدم سيزار: قيس مرة ثانية.

التفتت إليه من أعلى: ماذا دادى؟

- السوريين يطلبون قيس.

- معقولة؟

- لا أدرى أرسلوا يقولون أن سيدة من حلب فقدت في الحرب أبنها والذي يدعى قيس وتعرفت على صورته .

- مستحيل.

- مستحيل !! لماذا؟

- لا أدرى داد.

- ما الأمر ليلي أخبريني؟

- أحبه دادى.

ضرب سيزار جبهته: What?

نعم وبصراحة أحبه. بالأمس شعرت بنفسى تسقط في بحر ليس له قرار. عين مياه عذبة في صحراء الجفاف.

- هل أمضيت الليل معه؟

نظرت ليلى إلى الرجل القناع بقلق لمحته يدير رأسه بعيدا وقد عمد إلى قراءة الملف الذي يمسك به، الأمر الذي شجعها على الحديث:

- أمس؟ أمضيت الليل كله بين أحضانه، وكأنى أحيا حلم سماوى، بالأمس أمضيت ليلتى مع شخص طاهر. عذرى. كنت احتضن ملاك. لا... إله من جبل الأولمب... لا لا فرعون من نهر النيل.

كلما سمع الماسك كلمتى حلم وملاك كان الغضب يطيح بوجه المقنع الذي كان أخفاه جيدا وراء الأوراق التي يقرأها.

عصر سيزار رأسه: أصابتك لوثة عقلية مثله، هذا المجنون.

- هو أسطورة دادى.

تغيرت ملامح الماسك وبدا أن وجهه يتحول لوجه شيطانى تتقد عيناه بلون الجمر. هز سيزار رأسه معترضا، مظهرا عدم اقتناعه بما تقوله ليلي أو أن ما تفعله هو تصرف صبيانى:

- ليلي أنت لست طفلة أو مراهقة. دعك من هذه التصرفات الصبيانية.

- لا دادى ليست تصرفات صبيانية.

- كيف تظنينها؟

- أشعر و أنا معه بأننى في حضرة مسيح.

الآن كان الماسك يسيح ويتصاعد منه الدخان؟

- أخيرا سوف تقعى في مصيدة الإيمان مبكرا لا زال أمامك الكثير.

- ألا تؤمنون بشيء في عصركم.

- لا يوجد هذا الشخص الذي لا يؤمن بشيء.

- أنا أؤمن بهذا الرجل.

- هذا الفتى بالذات مجنون، كل الناس تقول عنه مجنون.

- مند متى تعودنا أن نستقى آراءنا و أفكارنا من الآخرين، عموما إذا كان مجنون سوف أشفيه.

- المشكلة ليست في شفاءه ولكن إذا كان مجنوناً فأنت تحبين جنونه.

- وإذا كنت أحب جنونه، يكفينى إنى عاصرت لحظة سحر مجنونة يستحيل لها أن تتكرر في عالم اليوم. دادى أتركنى، أتركنى أخوض تجربتى. يكفي أننى سعيدة. والسعادة بالذات حلم مستحيل تحقيقه.

- هذا ليس حلماً هذه سحابة صيف.

كان القناع يخوص في مقعده وقد نساه الجميع.

- لا تنس. ربما كان أبن صديقك العربى الذي أنقذ حياتك في وهران و أنا أرد دين الأب للابن.

صمت سيزار وهلة ثم قال محبطا: لم تكونى هكذا أبدا... ما الذي يحدث لك؟

- أشعر باني اقف أمام حلم. قل لى داد.

- ماذا؟

- هل استطعت يوما أن تلمس حلم؟

- هوةةةة هووةةةة. كلام جميل... شعر ليس له علاقة بالو اقع. من يستطيع أن يلمس حلم، يا عزيزتى ما أن يلمس المرء حلما حتى يتحول لو اقع.

- دادى هذا حلم لم ألمسه، أنا أحياه؟

- هذا ما ينقصنا! عموما إذا كنت منفعلة بالتجربة، لا تجعليها تتمكن منك، لا تجعليها تتسبب لك في لوثة عقلية.

- داد!؟

-ةنعم ليلى.

- لا تسلمه لأحد.

- كيف؟

- يجب معرفة شخصيته أولا.

- أتمنى أن يستطيع دكتور مصطفى.

- لا أعتقد.

- لم... أليس كفئاً؟

- أعتقد إنه في حالة عداء معاه.

- أوه... مستحيل هذا التفكير ليلى، أنه يؤثر عليك جدا.

* * * *

على حافة الغدير نظر مصطفي لقيس بغضب، سأله بسخرية مستفسرا عن الخطوط التي أزالها قبل مجيئه:

- بترسم أيه؟ قلوب على الرمال... سوف تمسحها عواصف الصحراء وغبارها.

أعطاه قيس ظهره: يا أخا العرب، لو تخبرنى كيف تغير حال الدنيا.

- كيف يا صديقى؟ هكذا هي لم تتغير قط.

نفخ قيس بسخرية: هه... قل لى مثلا... كيف لطبيب نفسى أن لا يتعاطف مع مريضه؟

شعر مصطفي بالحرج، استدار ليجلس أمامه: أسمع نصيحتى. واضح أنك تعانى من أزمة عاطفية دمرت قدرتك على التعامل مع الو اقع. كلمنى... تحدث إلى، اجعلنى صديقك.

هز قيس رأسه مو افقا: وبعد؟

قل لى مثلا... من هي الفتاة التي خانتك؟ أكنت تحبها؟ وما مقدار حبك لها؟ أين تعرفت عليها؟ في البصرة... بغداد... هل كنت مهاجرا للكويت ووقعت في غرام أميرة كويتية... أميرات من السعودية خطفوك من الطريق على حفلة جنس كنت فيها الوجبة الرئيسية والوحيدة، اغتصبوك حتى كفرت بالجنس، جعلوك تؤمن بدين العذرية عن حق، قل لى كيف استطعت أن تهرب منهم قبل أن يقتلوك...

- ...

- هي فتاة من الشام. أم أنك متورط مع فلسطينية في منظمة سرية... ربما خنتهم وضميرك يعذبك...

تحرك بؤبؤ عينيه بقلق، هتف دكتور مصطفي وقد داهمه خاطر:

- حسنا ماذا لو كنت أحد مولت من منظمة فلسطينية وهربت بنقودهم، ستكون مصرى في هذه الحالة... يا ربى... طبعا مش ممكن تكون مصرية، أكيد هي في هذه الحالة فلسطينية؟

- ولم لا تكون مصرية؟
- المصريين لم يعودوا يهتمون بالعواطف هذه الأيام. متزوج؟
- لا.
هز مصطفي رأسه: خاطب؟

هز قيس رأسه نفيا وتساءل: أيش معنى أخطب؟ أخطب في الجموع... أنادى في الأسواق فعلت كل هادا وما اخترته.

- كويس بداية خيط، فيه آيه تانى لم تختاره؟

- أنا ما اخترت الحب. ما اخترت ليلي. ما اخترت شيء.

مصطفي بتأفف: يعنى كل شيء كان قدر.

جلدك مو قدر؟ لحمك مو قدر؟ دمك مو قدر؟ بشرتك هادى. قالها وهو يلمس بشرة مصطفى: مو قدر. هادا أنت ما تصبح قدر؟

هز مصطفي رأسه محاولا التخلص من سيطرة حجة قيس:

- مش ح تقنعنى أن أنت قيس بن الملوح العاشق المجنون. ممكن ليلي تعجبها حالتك. لكن أنا شايفك وح أكلمك بصراحة، أنت مريض في حالة متأخرة من الذهان الوجدانى. ده يفسر علاقتك المبكرة بليلي دى سيزار.
- تقصد العامرية.
- عامرية أيه بس يا صاحبى؟ دى بنت فرنسية من بنات الفرنجة. صحيح زى لهطة القشطة بس مش دى العامرية.
رفع قيس رأسه إلى السماء و أنشد:

أبى قلبى إلا حبها عامرية

لها كنية عمرو وليس لها عمرو

صاح به غاضبا: يا بنى فوق، مش عامرية، مش من قبيلة بنى عامر، مش من جنس العرب أصلا، وبعدين إحنا في القرن العشرين حرام عليك ح تجننى. ليلاك ماتت من آلف وخمسمائة سنة وشبعت موت.

قيس لا يسمع له يطيح برأسه متسائلا في برود: وكيف عرفت أنها ليست العامرية؟

- لأنها ليست العامرية.

- وما هو دليلك؟

- جواز سفرها. عينيها الخضر. شعرها الأشقر. يعنى مش ممكن تكون هي. حتى هي فهمت ببراعة احتياج مريض الذهان لشخص يقوم معه بدور الأم الحامية. الدور اللى تلعبه معاك من ساعة ما أنقذتك من الصحراء، وتأكد ده لها لما أنقذتك من براثن ورد، وبالذات بعد اللى حصل بينك وبينها إمبارح.

انتفض قيس غاضبا ووقف ينظر له برغبة في العراك: وأنت أيه مصلحتك؟ أيه اللى يهمك ما دام تقوم بدورفي العلاج.

- كويس أديك اعترفت انك مريض. من أنت إذن؟

أعطاه ظهره واستدار يطل براسه شامخا يمسح الصحراء الممتدة الشاسعة بعينيه و أنطلق صوته:

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لى

الليل هزتني إليك المضاجع

أقضي نهاري بالحديث وبالمني

ويجمعني الهم والهم بالليل جامع

لقد ثبت في القلب منك مودة
كما ثبتت في الراحتين الأصابع

أطرق مصطفي رأسه غضبا: زغت منى تانى. بتهرب ليه ومن أيه؟

أمسك الغضب بتلابيب قيس. لمع خاطر في ذهن مصطفي وهو لا ينتبه إلى التوتر الحاد الذي يشد بخناق قيس، صاح به: مما تهرب؟ هه فاكر شويه البوليتيكا دى ح تخيل على زى ما ضحكت بيها على البنت المراهقة، هي لن تخسر شيء، سوف ترجع إلى وطنها وتقول "ياى قابلت في الصحراء والحرب حاجة تجنن، فتى ملوح البشرة زى اللوح، أقام لى معبدا في الصحراء... كان يعبدنى مثل إفروديت. وكذا ترفع رأسها على صديقاتها من البنات المقتولين بالوحدة والافتقاد إلى مغامرات فريدة.

- ولم تفعل يا طبيب المجانين؟

- لأنك أصبحت في تاريخها العاطفي تجربة مختلفة لم تمر بها واحدة من أقرانها.

- تجربة مختلفة.

- خصوصا إمبارح؟

قيس بدهشة وغضب: إمبارح. ماله إمبارح؟

ضحك مصطفي بسخرية: ده وحده قصة؛ خلطة بهارات من العذرية واللى... اللى مش عارف ماذا أقول... البنت لما تفوق من المسرحية بتاعتك ماذا ستقول عنك؟ عفريت... شيطان؟

بقلق وعصبية همس قيس: عرفت أزاى؟ هل كنت تتجسس على؟ هل هذا هو الطب، هل هذا قسم أبقراط.

عقب بخجل: أبدا كل مخيم الصليب الأحمر عارف.

قام قيس من فوره والغضب يصرعه، جأر في الفضاء من الألم وهتف:

دوى كبدي يعاودني صداعي

كأن فراق ليلى كانتزاعي

تكنفني الوشاة فأزعجوني

فبال الناس من وشاة المطاع

فأصبحت الغداة ألوم نفسي

على شيء وليس بمستطاع

كمجنون يعض على يديه

تبين غبنه بعد البياع

قيس يقبل التراب الذي مرت عليه ليلى ويستطرد:

وما أحببت أرضكم

ولكن أقبل ظل من وطئ التراب

لقد لاقيت من كلفي بليلى بلاء(1)

مصطفي مسحورا بالشعريحاول أن يهدئه: ليه أنت غاضب؟

- وكيف لا أغضب؟

- ألم تنل ما تبغى وتدور حوله.

صرخ قيس ثانية: لعل أبوها قتلها أو حبسها في قلعته.

---

[1] من شعر قيس لبنى

خطف عصاه، رفعها ودار بها في ثورة عارمة، فبدت مثل سيف حاد من سيوف العصور الوسطى. وجد مصطفي العصا وقد تحولت لنصل حاد يمر بجواروجهه وقيس يدفعه ليحف بعنقه.

صرخ قيس في وجه مصطفي بتهديد حاد شعر به مصطفي لأول مرة:

- تحتقرنى. أنظر لنفسك. تريدنى مثلك عاقلا. ولكن من تكون أنت؟

أطاح قيس بمفكرة مصطفي جانبا، قلب أوراقها بذؤابة سيفه، توالت على الأوراق السطور تلي بعضها:

شقة 300 ألف جنيه

أجهزة منزلية 120 ألف جنيه

عربية مرسيدس 350 ألف جنيه

أثاث 130 ألف جنيه

عيادة 280 ألف جنيه

مستشفي مليون جنيه.

قيس: هذا ما تريدنى أن أكونه؟!

نظر مصطفي مذهولا إلى المكتوب على الورق... شعر أمامه بالضآلة. جلس منهارا بينما بدأ يرى قيس الو اقف أمامه ضخما هائلا.

بمهارة فارس أطاح قيس بنصل السيف بالأوراق الممزقة إلى ماء الغدير. تابع مصطفي أحلامه التافهة وهي تجرى على سطح الماء بحسرة. سمعه يناديه بطريقة آمرة مسيطرة: قم و اتبعنى يا رجل.

- أين؟

- إلى الفتاة التي لوثت شرفها.

همس دكتور مصطفى: شرف أيه؟ إحنا في القرن العشرين. آيه التخلف ده؟

صاح به: اتعبتنى بضعة خلقك وضعف إرادتك وضياع عزيمتك.
- أنا!
- ومن سواك؟
- أى شرف تتحدث عنه؟
- هل خلا القرن العشرين من الشرف؟ أصمت و اتبعني.
سار الفتي يخترق المعسكر باتجاه المخيم... وقف حائرا، ثم ما لبث أن صارووراءه.

* * * *

من بعيد ظهر جناح القيادة الذي يقيم فيه مدير المعسكر سيزار، وبينما رأى مصطفي مبنى مؤسساً من تجهيزات خفيفة سابقة التجهيز من مستوى تكنولوجى متطور للغاية، رأى قيس قلعة من قلاع القرون الوسطى. تقدم وهو يرى نفسه فارسا عربياً من فرسان العصور الوسطي، يقاتل على أبواب القسطنطينية، شاهد السلم المعدنى يرتفع عن الخندق الذي يحيط بالقلعة، ليتحول في ناظريه درجات من السلالم الحجرية بينما تتحول المقدمة تدريجيا لأعمدة حجرية، أما الرجال الذين عبرهم قد أصبحوا فرسان مدججين بالسيوف والدروع. شاهد مصطفي قيس ينادى على سيزار: قيصر يا ملك الروم. قيصر يا ملك الروم... أخرج إلى أو أصعد إليك.

كان سيزار على مكتبه منكبا على أوراقه بينما ليلي أمامه تصعد السلالم لتعيد أوراقاً وملفات للأرفف العليا لمكتبته، وبجواره حبيبة تمسك بنظارة القراءة تعيد عليه قراءة تقرير الملف الأسبوعى للمعسكر، وأمامه كان الرجل القناع في انتظار وصول سيارته من القاعدة الأمريكية، سمع سيزار نداء قيس، رفع رأسه مذعورا.

عاد قيس يناديه: قيصر يا ملك الروم أنزل يا رجل ولا تختبئ خلف الجدران الحجرية، لن تحميك مني ولو صنعت من صخور أهرامات الفراعنة.

دارت حبيبة حول نفسها تبحث عن مكان تختفي فيه حتى تتمكن من أن تنفجر في الضحك، لكن سيزار حدجها بنظرة صارمة، أدار سيزار يديه حول رأسه وهو ينظر لليلي علامة الجنون وردد: اللوثة رجعت له!

عنفته ليلي بضيق: داد.

سيزار: حسنا وماذا أفعل معه؟

ليلي: أصبر عليه.

عقبت حبيبة وهي تبتسم: عكت، دي أجننت بصحيح. استطردت تقلدها وهي عاجزة عن أن تمنع نبرة السخرية: أصبر عليها شويه.

قالت ليلى بغضب: أرجوك لا تتدخلي فيما لا يعنيك.

هزت حبيبة رأسها ورفعت يديها مستسلمة وقالت: أنا خارجة من هنا. وقبل أن يمنعها سيزار من الرحيل، اقتحم قيس ساحة قلعة الروم وضرب أبواب حصونها وصعد سلالمها قفزا شاهرا سيفه وخصلات شعره تتطاير حوله، وخلفه مصطفي يحاول أن يمنعه دون جدوى. ركل باب المكتب فانفتح على مصراعيه. تراجعت حبيبه مندهشة. بينما وقف سيزار خلف مكتبه، نظره قيس ونظر ليلي التي أطلت عليه من أعلى، هتفت به ليلي منزعجة: ماذا حدث؟ ماذا جرى لك يا حبيبي؟

رفع القناع وجهه لينظر أمامه المجنون يندفع كعاصفة فابتسم وهمس: حالة ميئوس منها. لمح مصطفي يدخل خلفه متقمصا دور التابع الغاضب. فكاد أن يصعق للتفاهة، لكنه أفاق مع تساؤل ليلي.

ليلي: فيه أيه يا دكتور مصطفى؟

سيزار: هل حدث شيء خطير؟

تراجع مصطفي يستعيد نفسه أمام رئيس المعسكر ونائبته وهو يبتسم معتذرا، لا يدري كيف تمكن الفتي من أن يجعله شريكا في ألاعيبه الجنونية، ساعد دكتورة حبيبة على النهوض، دفعته وهي تشعر الآن بورطته المضحكة، حاول أن يعود بقيس إلى الخارج. لكن الأوان قد فات.

مصطفى: أبدا مفيش حاجة.

سمع قيس دكتور مصطفي وهو يميل على سيزار ويهمس: شويه هلاوس ولخبطة في الوجدان. اندثار ذهانى.

قذف قيس بمصطفي فطار بعيدا مثل ذبابة وهو يبعده عن طريقه إلى سيزار، أصطدم بالقناع هتف بغضب متسائلا: ما الذي جاء بهذا المهرج هنا؟

سأله سيزار مستنكرا اقتحامه لمكتبه: ما الذي أتى بك أنت إلى هنا مسيو قيس؟

امسك القناع أعصابه بصعوبة وجز أسنانه مدمدما: سموكي.

استدار قيس يواجه سيزار، وعيناه تطق بالشرر: يا أبا ليلى... هل أتاك حديث الإفك والبهتان؟

كاد الجميع أن ينفجر من الضحك، قال سيزار وهو يشعر أنه أصبح محل سخرية الجميع: ما الذي تقوله؟

قيس: هل أتاك حديث الكذب؟

- لا تأتنى سوى الحقيقة مسيو قيس.

هناك من يزعم بأن سيدة الطهر وملكة الحياء، قد خدشت عفتها. وهي الشرف المجسد والعذراء البتول.

أشارت ليلي لقيس أن يصمت وهتفت: أرجوك أصمت لا تنطق أرجوك لا تسئ إلي.

قاطعهم سيزار وهو يهز رأسه غاضبا: أى عذراء وأى بتول، عمن تتحدث مسيو قيس؟

- وهي زهرة الأقحوان قد مر عليها الصباح ولم تمسها حتى قطرة الندى الطهور.

نظر سيزار إلى ليلى غاضبا، أشار إلى قيس: سمعت ما يقول؟ أيعجبك هذا؟

تابع الماسك الجنون الذي يدور أمامه وليلي تصرخ:

- أأنا عذراء بتول! وما الذي كنت تفعله معى طوال ليلة أمس؟ كنت أنا وليس أخرى، أدركني يا دادى يقول عنى عذراء. OH MY God. ربما يظننى هي العامرية...

لكن ما فاجئه هو سؤال قيس المندهش الممتلئ بالتساؤل والصدمة لليلى:

- أولست عذراء؟

هتف الماسك: ها نحن أمام حالة رخيصة لفصام عربى مزمن.

كادت ليلى أن تصاب بالجنون ودون أن تدرى رفعت رزمة الملفات التي بيدها لأعلى، توقعت حبيبة ما سوف يحدث فأخفت وجهها، بينما ليلى تنزل بها على أم رأس قيس بكل قوتها وهو يفتح لها ساعديه مستسلما. سقط مغشيا عليه، هبطت من السلالم منفعلة وغادرت المكتب وهي في قمة غضبها.

أسرع مصطفي وحبيبة إلى قيس يساعدانه كي يفيق من إغمائه. همس مصطفي وهو يطرق وجهه: يبدو أنه مصروع.

نفت حبيبة الأمر وهي تنادى إلياس كي يحضر أجهز التنفس الصناعى: ليس لديه أى عوارض الصرع. وعقبت: قل لى ماذا حدث، دخلتم علينا كالقضاء والقدر. ما الذي أثارهياجه بهذا الشكل؟

- غلطتي.

نظرت له باندهاش: غلطتك؟

- قلت له أن المخيم كله يعلم أنه أمضى ليلة البارحة مع ليلي.

- لقد قلبت نظام أمانه، وهل تدعى أنك طبيب نفسى. مستحيل دكتور مصطفى، تعالجه أم تهدمه؟

تنهد مصطفي بضيق: والله لا أعرف، الموضوع كله يصيب بالخبل. نحن في منطقة حرب، ما علاقة الحب العذري بحرب الخليج؟

حبيبة: ده اللى عامل لك التشويش.

مصطفى: ده اللي مخلينى عاجزعن التعامل مع موضوعه بجدية، زى ما تضطرى لعلاج شخص أصيب بخدوش نتيجة قيادة دراجة، وأنت في قلب الجبهة، معارك دبابات وقصف بالنابالم؛ عشرات الجرحى والموتى، أكيد ح تضطري تتعاملى مع الحب العذري بخفة.

نظرالماسك لمصطفي بارتياح متوقع وقام يغادرالمكتب الذي تحول لفوضى مذهلة، قال لسيزار: أعذرنى ستصل السيارة بعد قليل. شكرا على حسن الضيافة، تحياتي للآنسة جوليت الصغيرة، يجب أن تحذر هذا الرجل المجنون.

هز سيزار رأسه معربا عن تفهمه، وقد أوشك أن يسأله أن كان فرنسيا من كالية وخاصة لفرنسيته القح، لكنه أكتفي بالمو افقة على نصيحته.

- سوف أهتم بالأمرمسيو ماسك.

- أعتقد أنك ستفعل.

في طريقه للخارج حي الجميع بانحناءة وهو يلمس طرف قبعته بطريقة تنم عن الغطرسة والاحترام: سيد مصطفى... آنسة حبيبة... سيد قيس ...

هتف سيزار : هو يتحدث العربية بطلاقة أهلها... هذا أمر غير طبيعي البتة... تابعه سيزار وهو يرحل حتى أختفي في نهاية الطرقة، ثم أسرع إلى النافذة، شاهد رجلان برتبة كولونيل يؤديان له التحية العسكرية بصرامة بالغة، وهو يختفي في عربة GM فان سوداء ويغيب في الصحراء.

سقط سيزار في مقعده الوثير وهو يغمغم: هذا يوم غير طبيعي، من المؤكد أنه ليس شوارسكوف قائد الحملة ولا جنرال باول، وأمامه كانت أجهزة الإرسال المخيم جميعها محطمة. شعر بالصدمة، عاد ينظر نحو الأفق حيث كانت الصحراء المنبسطة تخفي شكلها الحقيقي؟

* * * *

أفاق قيس، هز رأسه، رفع مصطفي رأسه قليلا. رأى الفتى وجه مصطفي فحل على وجهه الغضب، سمعت حبيبة غير المنتبهة لكونه قد أفاق وهي تحدث دكتور مصطفى:

- عذرية آيه التي تتكلم عنها؟

في حزن غاضب قال الفتى: حتى أنت يا أختاه؟

شعرت بالحرج، نظر مصطفي إليها موضحا ذكاء منطق قيس:

- مش قلت لك مشكلة.

قام قيس، حرر نفسه منهما ورحل. حدث مصطفي حبيبة بالفصحى وبخبث:

- مشكلةٌ كبيرةٌ يا أختاه... وعقب متى سترحلين للضفة.

نظرت له مصدومة: كيف عرفت؟

- كل المخيم يتحدث عن عائلتك الجديدة.

- كل المخيم، نحن في قرية صغيرة للغاية.

- صرت تنقل أخبار العالم، مبين صرت إذاعة متنقلة دكتور مصطفى.

- والله لم أقصد... ليس بيدى حيلة، متى سترحلين؟

- هل أنت مهتم؟

- تماما...

- لا أعرف، أنهم هناك يصرون على قدومي، جدى يقول لى في خطاباته، يجب أن تشاهدى أرض الأنبياء، وقد أصبحت بين يدى القتلة... قلت لنفسى الجواب باين من عنوانه.

- مش ح تسافري.

- ليش بتضغط على.

- أنا لا أضغط عليك.

- و أنا ما بعرف...

* * * *

- 17 -

أعلى فراشه علق مروان لوحات ثلاثة من خشب الورد والصدف كتب عليها بخط كوفي بديع:

"عندما تنتهي الحروب

من الذي يفكر في الجنود"

"أكثر الناس احتقارا للجنود هم

الجنرالات الذين دخلوا عنابر الجرحى

وخرجوا وبعد أن تأكدوا

أن أعضائهم لازالت سليمة

وعادوا بابتهاج لخوض حروب بديلة

في عنابر التعذيب"

أكثر الناس ابتهاجا بالحرب؛
تجار السلاح، والمثقفين العرب الذين يخوضونها
من خلف مكبرات الصوت"

أمامه كان فهد يجلس متكئاً على ظهره يفتح صندوقاً يحتوي على طعام وفواكهه مرسل له من أهله، انهمك فهد في تقشير التفاح بمطواة سويسرية كبيرة، دون أن يلاحظ ما يجرى حوله. بينما بقى كل من آدم ومروان ينظران إليه.

فتح باب العنبر فجأة ودخلت ربيكا تدفع أمامها أبو الجاسم على الترولى وقد كشف عن وجه مشوة مصاب برضوض عميقة...

انتفض فهد لرؤيته لأبو الجاسم. وبصق عليه لحظة مروره أمامه. ولم يكتف فما أن غادرت ربيكا العنبر حتى قفز على عجلة المعوقين ليتمكن من مهاجمة أبو الجاسم والنيل منه، فوجئ الجميع به ينشب أظافره في وجهه، تراجع أبو الجاسم يخفي وجهه من الفزع، أسرع آدم ومروان يحاولان منع فهد من إيذاء أبو الجاسم الذي شرع يهاجمه بالسلاح الذي يمسك به.

تطلع قيس من فراشه عليهم وقد تملكه الانفعال، في لحظات قليلة كان أربعتهم قد سقط على الأرض منفرطين منهكين، وفهد لا يزال يحاول النيل من أبو الجاسم. الذي كان (والخوف يقتله) يدفع بجسده للحائط يحاول اختراقه محاولا الفرار ، بينما آدم ومروان يحاولان أن يخلصا بينهم.

كان قيس مندهشا إذ كانوا قصار القامة يدفعون الهواء بسواعدهم وهم يتقلبون على ظهورهم يجدفون في الفضاء في فوضى، شيء فيهم كان ناقصا، شيء ما كان يثير السخرية، كان أربعتهم مبتورى الأرجل.

تكالب مروان وآدم على فهد، يمنعانه من طعن أبو الجاسم الذي استسلم له، وقد تعلق آدم بذراع فهد مستميتا في تقيده، خطف مروان السلاح من فهد بقسوة متعمدة، دفعه وهو يصيح به: يا أخى ذنبه آيه؟ شو ذنب أى واحد فينا؟

غمغم فهد: ما دمر بلدى.

آدم: والعراق... ما عاد فيه عراق.

صاح مروان: أخى فهد... كلنا ضحايا.

ساد الصمت للحظات، كانوا يحاولون جمع شتاتهم، وعندما تمكن مروان من جمع أشلاءه وصعد دراجته، تراجع ليرتكن على الجدار، مال مروان على فهد يهدئه، وكذا فعل آدم فجلس يحمى أبو الجاسم جاعلا من جسده حائلا بين المتشابكين.

قال مروان: هدئ نفسك يا أخى ... هدى نفسك شوى

آدم: يا جماعة اللى حصل حصل. هو حد له يد فيه.

مروان: مو هيك صار اللى صار وبدنا نفض هيك شغلة.

آدم: كلنا ما بأيدينا شيء. العسكرى عليه ينفذ الأوامر حتى ولو كان الضحية أخوه، يعنى لو تسأل أبو الجاسم إذا كان له يد في اللى حصل. ح يقول والله ما بعرف.

مروان: أيوة عايز تدبر حالك دبره مع الكبار. يا أخى نحنا شعوب مسيرة مو مخيرة. وبدنا نفض هيك شغلة.

أعترض فهد بغضب: بدنا نفض هيك شغلة!! بيتى دمروه، أرضي حرقوها، نفطى أشعلوه. أنتم ما تدروا شو اللى صار.

بكى فهد. صعد أدم إلى دراجته حتى امتطاها، ثم حركها ناحية فهد وهو يطيب بخاطره ويربت على كتفه: يا أخى الكويت رجع لأصحابه. شدة وزالت.

ضحك فهد بهستريا وهو يدفع آدم عنه والدموع في عينيه: كلام كلام. أما الحقيقة فدائما ما نعمى النظر عنها. الكويت صار أسير. بتفهم شو المعنى. الكويت صار أسير.

مروان: خلاص أتحرر. يا أخى بدك تشوف شو اللى صار بينا.

نظروا لتشوهاتهم الجسدية الجسيمة. وجوههم المحترقة. سيقانهم التي بترت. أشار مروان إلى عجزهم: صرنا عجزة من شان تحرير الكويت. ما يكفيك هذا. غلطة أرتكبها مجنون. ديكتاتور مستبد ودفعنا شبابنا تمن لها. خلاص فهد روق أشوى. بدك تنحصر وإذا بتموت بالحصرم.

- ايه بنحصر. لأن لما أن أقول أن الكويت صار أسير، فها هي الحقيقة فقدت شبابك، فقدت شبابى. لكن الكويت صار أسير للعالم وبالأخص أمريكا، صار علينا لها دين بدنا نسده أجيال ورا أجيال...

حل عليهم الصمت والوجوم. استطرد فهد: كنا جزيرة من الحرية. كنا منارة للثقافة في الوقت اللى صارت الثقافة فيه سبة وبزنس. كنا ندعم الفلسطينية، فاتحين لهم منازلنا. هاى مو بس قضية أنظمة وحكام، هون قضية شعوب.

آدم: ليه المصريين وقفوا جنبكم.

مروان: وكذا فعلنا نحن السورين.

- لكن ما فعل الفلسطينيين وهسه فيه مين يدافع عن الديكتاتور السفاح، ويدافع عما حصل.

آدم: المثقفين مخهم ضارب.

مروان: لا مو مخهم ضارب، هم أسري ما خذوا تحت المنضدة أخ آدم. هادول قبضوا حسابهم كاش، رزم دولارات وشيكات مفتوحة لقاء التهليل والمساندة، وعربات مرسيدس لقاء الصمت، وكله ماشى هيك.

- فاسدين تقصد؟

- أديش فاسدين! عا دول فقدوا شرفهم بامتياز.

فهد: أنا كنت أشايع اليسار العربى، يا أخى المنظمات الفلسطينية كان لها باع كبير بالكويت، كنت بدى أتطوع في الشعبية، في الديمقراطية أو فتح وأموت فدا فلسطين، كنت أحلم بجثتى معلقة على الأسلاك الشائكة بتخط طريق للعودة، لكن لما أن صار اللى صار، ما في حد منهم دافع عنى. كنت أتمنى أن منظمة من هاى المنظمات تعلن وقوفها بجانب حقوق الشعب الكويتى، متل ما فعلنا بالثانوية والجامعة، لكن يقولون هاى إمارة إيش تسوى أمام العراق! ما يدركون إنها إمارة بها شعب كريم، إله كرامته وعزته. وبعدين شو فعل البعث العراقى لفلسطين، مو هم اللى قالوا ... ماكو أوامر والملك حسين بيصفي الفدائيين في الجرش وعجلون.

مروان: أيش بدك في هادا وهداك.

صرخ فهد: مو قلت لك. صرنا أسرى للعالم يا أخى، صار للعالم جميل علينا بدنا نسدده لكل من هب ودب، مو كفاية الجرح الفلسطينى ليش بدنا نشق جروح بها الوطن؟ ليش؟... إذا بيرضيك هذا ما بيرضينى.

قال مروان يطيب من خاطره: أبو الشباب ما يرضى حدا يا أخى... بالله هليك تنام خلى الجروح تنام.

* * * *

على مدخل عنبر الجرحى وقف قيس وبصحبته ليلي، وقد تعلقت بساعده كعاشقين وهي تهمس في إذنه بعبارات غير مسموعة. نظر الجرحى الأربعة إليه بغيظ. أدار آدم دراجته عائدا إلى فراشه. ينادى

مانويلا أن تعاونه على الصعود إلى فراشه: سستر... تعالى أنا مش ناقص وجع قلب.

صفق مروان بيده: كيف لها الزلمة يسحر هاى العصفورة.

علق فهد وهو يدير رأسه للحائط: معه رجلين. و أنت ما معك.

مروان: يا أخى ليش تذكرنا بمصائبنا اتركنا نحلم.

فهد: ما عاد للمكسحين أن يحلموا.

مروان: إلا العربى بيركب ظهر الناقة وينظر للنجوم في السما ويحلم.

حدثهم آدم ورأسه تحت الوسادة: ويحلم شعر وشعارات وكلام.

مروان: حتى فعله الجنسى كلام.

سمعت حشرجة من لسان أبو الجاسم. صرخ آدم به: بتقول آيه.

أشار لنفسه: هاى مصير الحالمين.

رفع آدم رأسه وهاجمه: هاى مصير المجانين.

مروان: هاى مصير العرب. مكسحين في حركتهم، مكسحين في ذكورتهم، مكسحين في عقولهم.

فهد: نعم يا أخى نحنا ما اتكسحنا في رجلينا بالأول. نحن اتكسحنا في عقولنا بالأساس.

أبو الجاسم: عن سبق إصرار وترصد.

آدم: يا عم نام والصباح رباح؟

مروان: نام بلكي يطلع الصبح.

* * * *

كان قيس ممددا على الفراش، بينما ليلي تغطيه وهي تهمس في وله: بكرة تاخد الدوا من الدكتور مصطفى. مفهوم.

استدار غاضبا وأعطاها ظهره العارى، وألقى برأسه للناحية المقابلة. قالت تطيب خاطره كطفل لها: لا تغضب، إذا لا تريده لا تأخذه، لكن داد لن يستطيع أن يحميك طول الوقت. لازم نكتشف شخصيتك.

حدق في أرضية العنبر: ألا يوجد من يصدقنى؟

همست تلاطفه بوجد: مستحيل حبيبى تعال.

مدت يدها وجذبت وجهه ناحيتها تداعبه: أنت لص منتحل شخصية عمرها ألف وخمسمائة عام. كيف تصبح قيس؟

- لماذا يقتصر النظر على الجسد؟

- في حالتك كيف يمكن النظر في غير الجسد؟

- أنا روحه... تسرى في الزمن.

كيف يا حبيبى. أنا لا أفهمك.

تهدج صوت ليلي التصقت به وهي لا تشعر بما حولها. مدت يدها وأمسكت بخصلات شعره تداعبها، همست: ماى جد مش قادرة أنزع من مخيلتى صورتك كفارس عاشق . حبيت حد قبلى. قصدى غير العامرية.

- والله ما أحببت غيرها وما لامست في البيد خيال لسواها.

- ألم تلمس أى أنثى أخرى على الأطلاق.

- لم يكن لى في الحلم سواها.

كاد أن يغمى عليها: في الحلم. يا ربى... مثلك تموت البنات في نظرة منه. مثلك حرام يكون لواحدة فقط. وفي الخيال!!!!

تنهدت بوله: أنت لازم تبقى زى ألفيس برسلى. دون جوان. جونى هولداى. جميس دين. البنات تموت فيك. تحلم بابتسامة منك. حرام ألا يستمتع بجمالك.

أدار رأسه لأعلى وحدق في الفراغ، استطردت: أنت لص سرقت قلبى وجعلتنى مجنونه بك. زعلان.

قبل أن يفكر في النطق انقضت على ثغره تهصره وهي تهتف: جننتنى يا مجنون.

فتح باب العنبر بطريقة بها قدر قليل من محاولة إصدار صوت للتنبيه. أطلت حبيبة وهي تصفق بيدها كي تنبه ليلي. نهضت ليلي مخدرة. حدثتها حبيبة بهدوء: لازم تفرقى بين وقت العمل ووقت المتعة.

تنهدت ليلي: العمل معاه متعة خالصة.

جذبتها حبيبة من يدها برفق وهي تود لو تشدها من شعرها كطفلة أخطأت همست:

- على الأقل مش في العنبر وقدام الجرحى.

انتفضت ليلي أسفا وشعورا بالخطأ الذي ارتكبته: كيف لى أن أنتبه لما أفعله معه وهو يسحرنى. حبيبة لا أستطيع أن أسيطر على أعصابى معه ولو للحظة... مش قادرة.

هيا أمامى... سيزار ح يتجنن عليك. يلا.

* * * *

عبرت كل منهما ممرات العنابر باتجاه قاعة الاجتماعات، حيث كان سيزار يتصدر طاولة الاجتماعات. جلست حبيبة على يمينه وبجوارها

جلس مصطفى. على يسار سيزار جلست ليلي وبجوارها طاقم الأطباء. في أخر الطاولة جلس أبو كريم وإلياس. على سبورة حديثة رسم عليها دوائر وعلاقات توضح شخصية مرضية. وقد كتب على لوحات من الورق المقوى ما سوف يقوم دكتور مصطفي بشرحه وتفسيره لاحقا. دقت أجهزة التلكس نظر سيزار أليها وعلى وجهه ملامح عدم التصديق... وعندما انتهي التيلكس من الخروج طرق سيزار الطاولة بيده وهو يدمدم: مش ممكن الأردنيون يطلبونه!

حبيبة: يطلبون من؟

سيزار: ومن غيره.

ليلي: قيس!

أبو كريم: طب كيف.

مصطفى: مش فاهم؟

سيزار: هل أشترك الأردنيين في الحرب؟

اليأس : ما حصل.

سيزار: كيف سيكون لهم جرحى في المنطقة المحايدة.

حبيبة: يمكن مدنى.

سيزار: الشخص المطلوب برتبة ملازم.

مصطفى: مش ممكن.

أبو كريم: أكيد قيس هذا عميل، كان يتجسس على العراق.

مصطفى: مستحيل، الأردن كان يساند العراق.

أبو كريم: أسمح لى دكتور، أنتم المصريين دراويش، كيف ما نقول كله عند العرب صابون.

مصطفى: ولا فهمت حاجة.

أبو كريم: ولو... الملك حسين عامل عقد مع C...I.A ما بيغادر الحياة قبل ما يخلص ع العراق، تماما كيف ما فعل مع مصر.

ليلي: قيس لا يمكن أن يكون قد أشترك في الحرب.

مصطفى: لماذا؟

- لست أدرى.

- أفهمك. ولكن ليس ضروريا.

- لم تقول ذلك، أنت تكرهه؟

لا مدموازيل ليلى، انتبهي فأقسى الرجال هم الحالمين.

- ...

- هذا النوع عندما يدافع عن فكرة مثالية، يمكن أن يضحى بالدنيا من أجل فكرته. يمكن أن يكون سادى، مثلا الثوار. أغلبهم في العادة مثاليين وحالمين، لكن ستالين قتل كل رفاقه، بول بوت أعدم مليون كمبودى.

ليلي: يا ربى. لم كل هذه القسوة؟

توجه سيزار بالحديث لمصطفى: أنت عربى فسر لى الأمر. الكويتيين في البداية. بعدين كل أسبوع طلب حاد اللهجة من العراقيين بتسليمه، السفارة السورية بنفسها، المنظمات الفلسطينية، اليمنيين طلبوا التحفظ عليه قبل البت في أمره، الأمارتين أرسلوا شخص على مستوى عال من الخارجية يريدون يقابلوه شخصيا.

- لم؟

- لم ! بالطبع يشكون في إنه ضابط مفقود من الجيش الإماراتى، وأخيرا فيه طلب من الأردنيين.

أبو كريم: كيف ما قلت لك، الأردنيين مستحيل.

مصطفى: ليه مستحيل؟ صحيح لم يشتركوا في الحرب، لكنهم كانوا يدعمون العراق.

إلياس: تقصد يورطون العراق.

أبو كريم: بالضبط كيف ما فعل الملك حسين بعبد الناصر في 1967، يبوس معه وهو متفق وقاعد بنفسه مع الصهاينة وحاطط خطه طعنه بالظهر.

حبيبة: وكيف وصل أردنى إلى المنطقة المحايدة؟

ألياس: حاجة واحدة بس.

تفرد يديها مندهشة، ألياس يهمس: عميل ربما؟

سيزار: مين عارف؟

مصطفى: يبقى فيه سؤال تانى؟

سيزار: ما هو؟

دكتور مصطفى: من الذي لم يطلبه؟

سيزار: السعوديين والمصريين.

داهم سيزار القلق. توجه بحديثه لمصطفى: عملت تقريرك؟

مصطفي يهز رأسه بالمو افقة. سيزار: أشرح لنا.

مصطفي يقف يمسك بمؤشر ضوئى ويشير إلى اللوحة، يحرك حواجبه علامة الدهشة ثم يشرع في الحديث: كما ترون. في اعتقادى إننا أمام شخصية هي في الأساس سيكوبائية ولكنها فجأة وتحت ظروف لا ندركها وربما هي الحرب تعانى من ذهان وجدانى.

ليلي تقاطعه: يعنى أيه ذهان وجدانى دكتور مصطفى

مصطفى: الذهان مرض نفسى يعانى منه المريض عندما لا يستطيع الأنا تسوية صراع نفسى حاد بين الرغبة ونقيضها في الو اقع. مثلا شخصية قيس بن الملوح مؤكد بتعانى من النوع ده من المرض.

حبيبة: مش فاهمة أيه علاقة بن الملوح بشخصيتنا

مصطفى: عندما عشق قيس ليلي العامرية كان يعانى من صراع حاد بين الرغبة الغيرية فيها وبين تقديسه لها بوصفها قديسة طاهرة. عذراء بتول.

حبيبة: الحب العذرى.

ليلي: الحب العذرى. هل ده معناه أن شخصيتنا مريضة نتيجة لأزمة عاطفية.

حبيبة: وكيف تقمص قيس؟

مصطفى: ممكن يكون شاعر، أستاذ أدب عربى. يعرف قيس جيدا، ومن هنا حدث انتكاس هروبى.

حدق الجميع به يحاول الفهم، استطرد مصطفى: قيس ليس مريض ذهانى بس. هو أيضا يعانى من جنسية غيرية. يعنى عشقه للجنس الأخر محدود بالرغبة فيه ولكن رغبة مجردة من عشق الأعضاء الجنسية ومن ثم ربما يحدث مغالاة أو تطرف يصل إلى حد عدم وجود رغبة في خوض علاقة جنسية كاملة.

- العفة.

حبيبة: مريض بالعفة.

إلياس: ده مجتمعنا العربى كده كله أمراض.

مصطفى: لا... ممكن الجنس الغيرى نفسه يصلح لعشق الوطن والدفاع عن المثل العليا ومقاومة السلطات المستبدة، شعارات مثل القومية والوحدة، القيم الأخلاقية الشرف أو السياسية.

مصطفي يستطرد: البعد الثالث للشخصية من هذا النوع، هو أنها مريضة بقانون الكل أو لا شيء، يعنى لا بديل عن ليلي العامرية وبالنمط اللذى هو مريض به. وإلا الموت على سبيل المثال.

- ...

- البعد الرابع اللذى يواجهنا هو فقدان الذاكرة... وإحنا هنا في حالة خاصة من حالة فقدان الذاكرة

سيزار: ما هي؟

مصطفى: فقدان الشعور بالواقع. فقدان الشعور بالشخصية.

ليلي: لأ هو حاسس بشخصيته تماما.

مصطفى: تفتكرى.

ليلي: على الأقل الشخصية التي تقمصها؟

حبيبة: قيس العذرى؟

ليلي: قيس المسيح.

سيزار: اللعنة. مش ممكن!! أنت بتحبى مجنون!!

وقفت ليلي غاضبة: أنتم المجانين. لو كل رجال العالم مثله ح تكون الحياة أفضل.

ظهرت علامات الدهشة على وجه مصطفى، لاحظته ليلي بامتعاض، تهاجمه: دكتور مصطفي طبعا مش ممكن يكون أنت النموذج اللى تتمناه بنت تبحث عن الحب مع إنسان حساس.

بينما كان يغادر الدهشة الناجمة عن هجومها عليه كي يفكر في حديثها بعمق، كانت حبيبة تقرض أظافرها وهي تتطلع للفتاة باحترام.

سيزار: ليلي مش من حقك.

ليلي بغضب: هو ليس الشخص المناسب كي يعالجه.

مصطفى: لماذا مدموازيل ليلي؟

ليلي: لأنك لا تحبه، لأنك تعاديه، لآن تعالجه من خلال وجهة نظرك في الحياة أنت تراه ساذج، وربما أحمق، معتوه.

تضرب رأسها بيدها وتهتف: أحمق. و أنت العاقل. مش كده. أليس هذا تفكيرك؟

شعر مصطفي بالصدمة. لا يستطيع الإنكار: أعتقد هذا.

خيم الوجوم على الجميع بينما ليلى تتبادل وحبيبة النظرات، لثوان تخلصت فيها حبيبة من شعورها بالصدمة، قالت وهي تنهي الجلسة: لازم توقف العلاج. أعتقد أنك لازم تنسحب.

سيزار: خليه يكمل.

مصطفي باستسلام وشعور بالذنب: أعتقد أنه مش مريض نفسي لحالة حرب.

- طبعا لأنك متخيل أنك قادم لمكان دمرته الحرب ولم تعد قادر على التفرقة بين الدم والنبيذ.

- لماذا دعيه يقدم تفسيره؟

وقف مصطفي يتحدث بجدية الطبيب الذي يعلم: مريض الحرب عادة يظل و اقع تحت السيطرة الأبوية للقيادة التي تقوم بدور التهديد والحماية في نفس الوقت، إذا انتصرت أنتصر الأب، إذا انهزمت يحل عليها السخط والغضب، هذا ما حدث في مصر بعد 1967. حملنا السخط والحب على الأب عبد الناصر، ولعناه لأنه جعل من نفسه الأب الحامى، وعندما انهزم الأب وحلمه، هُزم المجتمع.

أدار سيزار رأسه غاضبا: وإذا ما كانش مريض حرب يبقى مريض حب.

إلياس: حب أيه في المنطقة المحايدة؟

أبو كريم: صحرا وسما

اليأس : يا عمى يجوز حبيبة الوطن.

أبو كريم: هيك يصير إما كويتى أو عراقى.

مصطفى: بالأحرى كويتى. لأنه صاحب البلد المغتصبة.

حبيبة: ممكن؟

جلس مصطفي وقبل أن يشرع أحد في الحديث أشار إلى الاحتمال الثالث: ويظل الاحتمال الثالث.

سيزار: ما هو؟

مصطفى: أننا لا نعرف عنه شئ حتى الآن.

أنهي سيزار الاجتماع: أوكي. قدامك مهلة أربع أيام بعدها لازم نقرر تسليمه.

ليلي: لا دادى.

سيزار: مش ممكن ليلي . إحنا في مؤسسة دولية مش في مستشفي خاص.

خرج الجميع وبقى مصطفي حائرا وحيدا. عاد أبو كريم إليه.

أبو كريم: محتاريا دكتور.

مصطفى: والله محتاريا أبو كريم .

- ما تعودنا من المصرية الحيرة.

- أعمل أيه؟ الموضوع أصبح معقد جدا.

- شو تعمل يا دكتور. ما تعمل شيء؟ تريح أعصابك وبعدين فكر.

- معاك حق. بس لازم أعمل حاجة الأول.

انتفض من كرسيه وترك مكتبه خارجا، في الطريق اصطدم بحبيبة، رفع يده معتذرا:

- أسف.

- بتجرى ليه؟

- عاوز أشوف ليلي ؟

- ح تعمل معاها أيه تانى؟ أنت جننتها.

- أولا لازم أعتذر لها. ثانيا أعتقد أنها ممكن تساعدنى.

- أتجننا... هو ده اللى ناقص. أحيانا يهيأ لى أنك مش طبيب نفسى محترف.

- ياه... هو أدائى سيئ للدرجة دى؟

- لا داعى للكذب عليك. الواضح قوى عدم جديتك.

- في موضوع قيس؟ مش كده؟

- معرفش، لا توجد مواضع أخرى للحكم من خلالها.

- معك حق... مشكلتى كيف أكون بالجدية اللازمة مع موضوع لا يتسم بأى جدية. أنا عشت في مستشفيات ومراكز تأهيل الحرب في مصر، لا أستطيع أن أصف لك.

- ...

- شىء مرعب.

- والآن لا تستطيع التعامل مع الحبوب ده.

- أعتقد هو ده السبب.

- أنت اللى محتاج طبيب نفسى

- هو ده اللى بعمله. عن إذنك.

* * * *

في صالة الطعام كان هناك عدد قليل من العاملين في المخيم يتناولون طعام الغذاء. ظهر مصطفي على باب المطعم يتطلع في أرجاءه بحثا عن ليلى. في الطرف المقابل للشرفة وجدها تجلس وحيدة، تحرك نحوها. رأته يقترب منها. التقت عيناهما لكن ليلي هربت منه وتجاهلته بغضب. وقف على رأس الطاولة يسألها أن تسمح له بالجلوس:

- أنا جاى أعتذرلك.

ليلي: عن ماذا مسيو مصطفى؟

مصطفى: عن حاجات كتير. عن كل تصرفاتى... تسمحى لى أقعد؟

ليلي تهز رأسها غضبا: المطعم للجميع.

حدق مصطفي بها، صاحت به: ما هي مشكلتك دكتور؟

- لو عندى شجاعة كافية؟

- ...؟

- ...

- لو عندك شجاعة كافية.

- أقول أنك السبب.

- في ماذا. في جنونه؟ أنا حتى لا أعرف أسمه الحقيقى.

- في تشتتى.

- أنا؟

فكرت في حيرة. عندما فهمت مقصده أصيبت بحالة هياج: أنا... أنت طبيب. كيف تجرؤ؟ كيف تفقد توازنك؟

- مش عارف. أنت تصعبى الأمور.

- ماذا تعنى أنك لا تعرف؟ هل تعنى أننى أسبب لك أى تشتيت، كيف تفكر فى؟ ثم حبيبة؟ لقد ظننت أنه... شعرت أن من الممكن؟

- لأ.

- ماذا؟ تفكر في أم تفكر في حبيبة؟

شعر مصطفي بالاضطراب: عمرى ما فكرت فيك كموضوع للحب.

- لم لا؟ فرق السن... غير مهم...

- لا... دائما فكرت فيك كفتاة سهلة؟

ليلي بجذع: ماذا؟ هل بلغت بك الوقاحة.

- ممكن... ولذلك تعاملت مع مريضى كغريم.

- من المريض هنا؟ قل لى؟

مصطفى: تقصدى أنا.

ليلي توشك باحتقار: واضح أنك دكتور فاشل.

- لا... صدقينى لا. أنا جئت كي أعتذر لك أولا.

- وثانيا.

- أطلب معونتك؟

- أنت تغازلنى كيف تجرؤ؟

- مدموازيل... هذا غزل رديء جدا.

تراجعت للخلف منهارة: لا أفهم شيئا.

وقف مصطفي وقد قرر مغادرة الطاولة: سامحينى، هذه مشكلة اختلاف ثقافات، أسف حتى مش كده، ممكن تسميها تقدم وتخلف.

تطلعت نحوه، تحدثت برقة: دائما كنت أتخيلك رجل مهذب.

- ولا زلت. أرجوك أنا أطلب مساعدتك.

أجابته باستنكار: من أجل من؟ أنت! غدا سأطلب من سيزار أن تعتذرعن علاج قيس.

- لا... لا. نحن المصرين إذا قررنا حل مشكلة نعيد ترتيب حياتنا بسرعة. نتكيف بسرعة. نعمل كل شيء ونقبل التحدى وننجح؟ و أنا أمامى أيام أربعة.

- هاها؟

استطرد بثقة وهو يشيرلها بإصبعه: أولا كان لازم أواجه الجزء اللى بيشتتنى وأواجهك.

- تتطهر.

- كي أتعامل مع مريضى بثقة، بحرية، بأمانة المهنة، بشعور أخلاق محترم.

تطلعت نحوه وهي تهزرأسها مقدرة. باغتها مصطفي يسألها: ألا زلت تريه في صورة مسيح؟

- تحولت لظبي وديع وهي تهمس: My God... بالفعل هو مسيح. حلم جميل يوعدك بالحياة في جنة من السماء.

- مش عارف لماذا لا أشعربهذا حتي الأن؟
- لا... أنت لا تستطيع أن تكتشف هذا الجزء فيه.
- لم؟
- لابد أن تكون أحاسيسك ووجدانك مهيئين له، قادرين على الاستبصار. أنت مغرق في عملانية سطحية، أنت تراه play boy.

هز رأسه بتمعن: و أنت تريه شخص على مستوى النبوءة.

- ربما.

وهو في حالة من التفكير العميق: أشكرك؟ من الضرورى أن أحاول النظر من زاويتك. أنا ح اعتمد بشكل كبير على علاقتك معه، على فكرة لو شئت يمكن أن تأخذيه وتذهبى لتقضى السهرة في القاعدة.

نظرت له بدهشة، استطرد: يمكن يستريح. يمكن نكتشف حاجة.

- أوكي سنرى.

*   *   *   *

بتلكؤ كانت الشمس تدخل حمراء في كهف الغروب، وفي غرفة مصطفي وقفت ليلي تتلقى منه قميص أسبور بهيج الألوان، مثل قمصان تاهيتى. ألقته على قيس، حاول الرفض، دون جدوى إذ أصرت على أن يقوم بارتدائه وهي تردد بولع:

- جميل. دكتور مصطفي يرتدى مقاسك بالضبط.

أضاف مصطفى: والبنطلون والجزمة. كل ملابسى تحت أمركم.

ليلي: يا ترى مبسوط.

قيس بكبرياء: إذا كان هذا يسعدك.

ليلي: نو... الرحلة دى كي تسعدك أنت.

قيس: لا يعوضنى عن البيد والشهباء والسحب سوى ابتسامة نهرك العذب.

ليلي: What? My God? أعطه سؤال يجيبك بسحر.

حبيبة تدخل: ألن يأتى دكتور مصطفى؟

مصطفى: لآ.

- ولم؟

أولا لست مدعوا، ثانيا أنا شخص ثقيل الظل. مفتقد للرومانسية عن جدارة.

حبيبة: أنا لن أستطيع الذهاب لو لم تذهب.

ليلي: قوم تعال عشان خاطر حبيبة ومريضك.

مصطفى: لم؟

حبيبة: لا أحب الجنود الأمريكين، متهورين وخطرين جدا عندما يفرطون في الشراب.

مصطفى: معك ليلي وقيس.

- ممتاز. ليلي وقيس ح يحمونى أم أنا التي يتعين على حمايتهم، مين خو في حاجة للحماية يا دكتور؟

مصطفى: فيه ربيكا. مانويلا.

حبيبة: ربيكا و مانويلا ح يختفوا لحظة وصولنا المعسكر. كن جنتلمان.

تظهر عليه علامات القبول تهتف به آمرة: 15 دقيقة وأمر عليك بالعربية، أوكي.

- حاضر.

* * * *

على هدى من النجوم وأضواء اللاند لوفر قادت حبيبة السيارة وبجوارها جلس مصطفي بينها وبين مانويلا. في الخلف جلست ليلي بجوار ربيكا وهي ترتكن برأسها على صدر قيس، تحت عباءة الليل عبرت الجيب الصحراء على موجة من الصفرة ومقدمتها تشق السحب وألوان المساء الساحرة. بعد مدة غمغم مصطفي أغنية لعبد الحليم

مشغول وحياتك مشغول

ولأخر الأسبوع

مشغول وحياتك. وحياتك مشغول
أنا مشغول عنك بيك
وما ليش ألا أنت وصورتك
قلبى يطمنى عليكي
وبطمن عنك قلبى

* * * *

- 18 -

والليل يخيم على الأرجاء، وقفت حبيبة أمام بوابة القاعدة الأمريكية، أظهرت تصريح الدخول لرجال الشرطة العسكرية، تهادت اللاند روفر داخل طرقات القاعدة، وعند قاعة المسرح توقفت، من الداخل تصاعدت موسيقى الديسكو ترج أركان المكان.

قفزت ربيكا ومانويلا إلى أحضان أصدقائهم الذين كانا بانتظارهم على الباب الخارجى، وتبعهم البقية، قامت ربيكا ومانويلا بتعريف زملائها لأصدقائها الأمريكيين

مانويلا: دكتورة حبيبة. مدموازيل ليلي. دكتور مصطفى. مسيو قيس.

قدمت مانويلا الضابطين: ميجور زاك هيوارد. ميجور مايكل شبرد.

أجابا بابتسامة واسعة: .Yes mam

دخل الجميع إلى الصالة، فتح مصطفي عينيه يشاهد حلبة رقص حديثة انتصبت في الطرف المواجه للمدخل، لم يستطع أن يكبح نفسه من الشعور بالغيرة والحسد، فأمامه كانت القاعة مزدحمة

بأعداد كبيرة من الجنود من الجنسين، وقفوا جماعات في ملابسهم العسكرية والمدنية، متناثرين بين والموائد والبار، وعلى حلبة الرقص أطلق عشرات من الجنود من الجنسين لجسدهم العنان بتناسق مع نغمات الموسيقى، وسط شلالات من أضواء الليزر، وكل منهم يعبر عن ذاته مسلما جسده للأخر أو محتفظا به لنفسه، بينما ضباط الشرطة العسكرية يتجولون في الأنحاء، وعلى قمة المسرح لوحة تليفزيونية ضخمة تعرض الفيديو كليب الخاص بالأغنية.

اختاروا منضدة في ركن قصي، جلست ليلي وقيس، وذهب البقية إلى البار وعادوا ومعهم كؤوس الويسكي والنبيذ وعلب البيرة... انهمكت ربيكا في تقبيل ايزاك بهوى. بينما احتضن مايكل خصر مانويلا، و اكتفت حبيبة بترك مصطفي يمسك بمرفقها وقد تقدمته قليلا.

عرض مصطفي على ليلي علب البيرة ففضلت النبيذ، قدم البيرة لقيس وهو يظنه سيرفض، وقد رفض بالفعل البيرة، لكن يده امتدت إلى كأس الويسكي التي تخص مصطفي رفعها دفعة واحدة، نظر الجميع نحوه. لكزه ايزاك وهو يضحك: لم العجلة يا رجل ... انتظر لنشرب سويا. هيا. في صحتكم.

صاح الجميع: في صحتكم.

قال ايزاك لربيكا: هيا نرقص.

قفزت ربيكا قفزا، فمد مايكل يده لمانويلا يطلب منها أن ترافقه للحلبة: مانويلا.

قامت على الفور لكن الفتاتين توقفتا للحظة، نظروا إلى حبيبة، فنظرت بدورها وهي تهز ردفيها على المقعد إلى مصطفي الذي حطت على وجهه ستار من البلادة. أسرعت مانويلا وربيكا تحثان مصطفي للقيام للرقص، حاول الرفض، صرخت به الطبيبتان.

مانويلا:.Come on

ربيكا:.Don’t be silly

مصطفى:.Ok . ok

وقف مصطفي بأناقة أمام حبيبة وانحنى بطريقة أرستقراطية يطلب منها أن ترافقه للرقص، نظرت ليلي وقيس لهما بإعجاب. صفقت ربيكا ومانويلا وتبعها مايكل وإسحاق، مدت حبيبة يدها لمصطفى، ثم قامت كملكة.

جذب التصفيق انتباه ضابطين من المدرعات برتبة نقيب، نظرا إلى المجموعة بقرف، دمدم فيل: من أحضر هؤلاء الرابش هنا؟

وكأن هذا نوع من الإنذار، أذ ارتفعت حالة الطوارئ في الجهاز الاستخبارات، تثاءبت البلورة الفسفورية من نومها، مسحت بكاميراتها أرجاء المكان؛ على الحلبة كانت ربيكا تراقص ايزاك، ومانويلا تراقص مايكل، بينما مصطفي يقف متوترا أمام حبيبة، حدثها بحرج: لست متمرسا على الرقص، سوف أسبب لك الحرج.

دمدمت بلورة الفيروز بقرف... ما الذي جاء بهذه الحيوانات هنا. رفعت بملل بالغ من مستويات شفافية أجهزة التصنت سمعتهما يتناجيان.

- على العكس أنت بترقص كويس جدا.

- الموضوع مش محتاج مجاملة.

دارت حبيبة حول نفسها دورة كاملة أدهشته وابتسم وهو يشعر بالسعادة لأن بين يديه فتاة تجيد الرقص، حدثته: معنى أنك لا ترقص جيدا أن العيب في السنيورة التي ترقص معك.

- لااااااا. رقصك رائع.

- لست أقصد ما تعنيه، أفهمني.

تابعها مصطفي وهو يتحرك ببطء: أنا ح بطل الرقص و أتفرج عليك.

- إذن معى حق.

- معك حق طبعا ولكن فيم؟

- لست مستمتعا بالرقص معى.

- كيف أثبت لك أننى مفتون برقصك.

- جمال الرقص يظهر طبقا لمشاعر الكابل(2) إذا كانا منسجمين تصبح الرقصة جميلة.

- وإذا كانا في حالة شغف بالأخر؟

- حالة ولع و انسجام؟

- ولع و انسجام.

- تصبح الرقصة مثل قمر مضيء يعانق ليل. أو شمس في يوم ربيعى تتعانق مع البحر.

- هذا شعر وليس رقص.

- بالضبط لأن الرقصة تصبح ذروة. قل لى كيف سترقص معى؟

- أريد مساعدتك.

- دعنى أريك.

توقف ينظر لها وهي ترقص رقص يكاد يكون غجريا، فتح عينيه يراها للمرة الأولى، ما لبثت أن تحولت نظراته لشخص مفتون بفتاة

---

[2] الكابل: couple

ذكية. بمتعة تقدم لها مال على وجنتها يقبلها، ابتسمت دون أن تنظر إليه، وعادت لاستغرقها في الرقص، شرع يجاريها باكتمال.

- من لا يحب حبيبة؟

- همست: كثيرهم الأغبياء .

اهتز مع إيقاع الموسيقى، اقترب وجهها كلية من وجهه حتى تنفس كل منهما الأخر، همس: و أنا لست غبي.

- So love me.

- With honor.

منذ تلك اللحظة ارتفعت المتعة لتظلل رقصهما. وقد استغرقت في الرقص كلية حتى تراجع كل من على حلبة الرقص والتف كل من في الحلبة حولهما.

ابتسمت البلورة وأدارت كاميراتها في القاعة الواسعة الأرجاء، توقفت بغتة عند منضدة جلس عليها قيس وليلى، هتفت: مستحيل. دارت البلورة حول نفسها بسرعة بالغة، ثوان وكان يجلس على طاولة المر اقبة الرجل الماسك.

على المنضدة عبثت ليلى بأنامل قيس وهي تهمس: مرتاح. فيه حاجة مضيقاك؟

- ما الذي جاء بالروم على أرض العرب؟

- What? !!

في الجهة المقابلة من الصالة ظهر تيفرنية الضابط الفرنسى، رأى ليلي، ابتسم لها وحياها وهو يتحرك نحوها.

رأى قيس تيفرنية، استطرد محدثا ليلي بتحفز: أرى جنود الروم على أرض العرب لا أحد يناوشهم ولا أحد يخرج لينازلهم.

- يا ربى. من هؤلاء الروم ؟!

وقف تيفرنية خلفها، انحنى يحدثها: أيوجد ما يحيرك؟

- أشياء كثيرة.

- قبلت دعوتى. ووفيت وعدك.

- ليس بالضبط.

أشارت بإيماءة من عينيها لقيس. فهم تيفرنية ما تعنيه، هز رأسه مبتسما:

- ستحطمين قلبى؟

- آسفة لم أكن أقصد.

- على أى حال أنت هنا. والآن ما الذي يحيرك؟

- أشياء كثيرة.

- على سبيل المثال؟

- هل تعرف شئ عن الروم؟

- طبعا. تذكرى الإمبراطورية الرومانية الشرقية. كانت تسيطر على الأجزاء الشمالية من هذه المنطقة.

- ...

- سوريا... فلسطين. الأردن.

تيفرنية ينظر لقيس: عربى.

- We.

- جنسيته؟

- فقد ذاكرته.

- حرب الخليج.

- لا شيء مؤكد.

- لست أفهم.

- هو شخص لطيف جدا.

- ya.

- حالم.

- ya.

- يتقمص شخصية تاريخية عربية؟

- أى شخصية؟

- شخص يدعى قيس؟

رفع تيفرنية رأسه علامة الفهم والإعجاب معا: قيس. ولكن أيهم؟

- وهل تعرفهما؟

هناك العديد من هذا القيس في التاريخ العربى.

- قيس اللى عامل زى روميو.

- أبن الملوح.

- كيف عرفت؟

- درست تاريخ المنطقة.

- أنت في الجهاز؟

أصيب تيفرنية بالصدمة، ثم استسلم مبتسما: لا تعليق.

- So. أنت في المخابرات؟

هز تيفرنية يده: ...

- الفرنسية؟

- بالطبع ليست الأمريكية.

طرق تيفرنية رأسه بعنف: My god! أيمكن أن يكون أحد التلاميذ المشاركين في حلقات الدكتور المشد، ربما كان أهمهم.

- حلقات آية؟

- حلقات كونها دكتور المشد امتداد لبرامجه قبل قيام الموساد باغتياله في باريس. كانوا أثنى عشر، كلهم مفقودين بعد حرب الخليج.

- من هو الدكتور المشد ؟

- عالم ذرة مصرى كان يقود البرنامج النووى العراقى.

- So what? أين المشكلة؟ ... أضئ فكرها وهلة بمعادلاته الرياضية التي كان يكتبها على الرمال، حدق فيها تيفرنية بجنون ودهشة: أين المشكلة؟ هل أنت ساذجة لهذا الحد؟

- هل تعنى أن هذا القيس الرومانتيكي، التائهة الذهن، الفاقد الذاكرة، كان يعمل في البرنامج النووى العراقى؟

- مخابرات الدنيا وعلى رأسها المواساد. تبحث عنه. أنت نفسك في خطر داهم.

- يحب أن تغادرى هذا المكان فورا. خذيه وارحلى. لو عرف الموساد بوجوده. Go. Go.

- ماذا؟

- Murder.

- Pourqua?

- سوف يقتلونه هذه هي الحقيقة الوحيدة الواضحة، أما الأسباب فهي أشد وضوحا لكن ليس ثمة وقت لمناقشتها.

- أريد أن أعرف؟

لو أردت أن تعرفي أطلعى على تاريخ الصراع العربى الإسر ائيلى، أما الآن Go ... Go... Go .

- وقفت ليلي وهي ترتعد من الهلع والفتى لاهي عنها، أمسكت بقيس، وأسرعت تحاول الاختفاء.

* * * *

على الحلبة وفي استغراق شديد رقصت حبيبة بجمال وجنون وقد غاصت في بحر من المتعة الذاتية، عندما شرعت تغنى أغنية من أغانى الراى تجمع حولها الر اقصين يصفقون ويرقصون على طرف الحلقة مثلها

خلف الجمع ظهر عميلين من عملاء المخابرات يتفقدون المكان، وفي الصالة لمح تيفرنية العميلين، دفع ليلي وقيس برفق كي تختبئ وراء ساتر من ديكور الملهي، بينما كان العميلين يدوران في الصالة وهم يتطلعون في وجوه الحاضرين، أشار لها كي تتسلل باتجاه الباب الخارجى لصالة الملهي، بلغت حبيبة ذروة الرقصة، وعلى الباب الخارجى لصالة الملهي. سأل تيفرنية ليلي: أين عربتك.

أشارت إلى الخارج وعقبت: وأصدقائى؟

- سأوصلهم؟ هيا لا تخشى شيء. لا تحضرى به هنا ثانية، أنت تعرضيه للموت الفورى.

- لن أفعل. وأضافت: أشكرك.

- Well come.

فجأة أمسك بمرفقها فالتفتت إليه، نظر إلى عينيها بعمق وهمس:

- هل تحبينه.

- Yes I do.

ظهر الأسى على وحه تيفرنية، ردد: أعراض الصحراء.

- ماذا تقصد؟

- لا تربطي مصيرك به. He is a dead man.

- I already did.

- في الحقيقة مات بالفعل.

- لا أفهمك؟

- لا يهم... لقد حذرتك على إي حال... هيا أسرعي لتصحبك السلامة.

لم تستطع التنفس، كانت تشعر بكل شيء يخنقها، قفزت إلى مقدمة العربة، قادتها على عجل، وبينما كانت تغادر البوابة الخارجية للقاعدة الأمريكية كانت حبيبة تصل ذروة رقصتها وتنهيها ويعقبها تصفيق حاد، حيت المشاهدين وهي تلهث، بينما كان مصطفي يقودها خارجا، بحثا عن ليلي وقيس. نادت عليهم ربيكا ومانويلا.

ربيكا: أين ليلي؟

حبيبة: لا نجدها.

مانويلا: قيس؟

حبيبة: اختفى؟

دخل مصطفي من الخارج: حتى الجيب اختفت.

ضحكت مانويلا: اختفي العاشقين

قالت حبيبة بقلق: كيف سنعود للمخيم؟

قفزت ربيكا إلى حضن ايزاك في سعادة ومرح: أقضي الليل معك. هتف ابزاك بسعادة وهو يدفع بقبضته إلى الفضاء يغنى أغنية فريق B.G.: Making love. Making love. Making love.

قفزت مانويلا هي الأخرى على عنق مايكل. فحملها بيده ودار بها في الصالة وهو يغنى: Making love. Making love. Making love

نظر مصطفي لهم مشدوها: الأشياء عندهم سهلة.

حبيبة: الأشياء عندنا تابوات.

ضم عينيه: ماذا سنفعل إذن؟

أسرع يغنى مثلهم: Making love. Making love. Making love

ضحكت حبيبة: No Dr. Mustafa

-...

- لابد أن تبرهن أنك تحبنى أولا. .Right

- .Right

اقترب تيفرنية منهم، ألقى لهم بمفاتيح سيارته: تستطيعون استعمال سيارتى. مدموازيل ليلي تعتذر لأنها عادت المخيم.

حبيبة: ألم تذكر السبب؟

تيفرنية: تقريبا صديقها كان متعب.

اقتربت مانويلا وربيكا بصحبة مايكل وإسحاق، انضموا للمجموعة. قدم تيفرنية نفسه لهم: ليفتنانت تيفرنية من العمليات الخاصة وضابط اتصال القوات الفرنسية.

إسحاق: هالوا تيفرنية.

تيفرنية: هالوا مايكل. إسحاق .

إسحاق : أنضم معانا

تيفرنية: بكل سرور.

جلس الجميع على المنضدة، وفي الصحراء كانت الجيب تنهب الليل وليلى تنظر لقيس بقلق، تهمس: أرجوك . أعرف أنت مين؟

لم تجد على وجهه سوى الوجوم.

* * * *

في الملهي أثار جلوس مصطفي وحبيبة ثانية غضب الضابطين الأمريكيين ذوى السحنة الشريرة جلسا على البار خلفهم مباشرة، سمعا مايكل يعقب بسعادة: في صحة التحالف.

حى الجميع مايكل عدا مصطفي الذي أظلم وجهه.

الجميع: في صحة التحالف.

نظر إسحاق لمصطفي في اندهاش بينما تحفز الأمريكيين.

إسحاق: هل لديك شيء ضد التحالف، على حد علمى أنك مصرى.

لم يأبه مصطفي بحديث الضابط، مالت مانويلا على إذن صديقها توضح له أنه طبيب في الصليب الأحمر. نظر لمصطفي بعمق يقيس قوته النفسية، تحدث مصطفى:

- أعتقد إنى أستطيع أن أفكر كيفما أريد.

إسحاق: Of course لك ما تشاء.

مصطفى: أوكي. كيف يمكن لكم دفن 8000 جندى في خندق الصحراء.

إسحاق:?What! are you crazy

مايكل: .We can not do that

حبيبة: .No you did it

على البار أستمع الضابطان للحوار الدائر. نظرا بعضهما البعض بابتسامة تواطؤ، بينما كان مصطفي يحكي التفاصيل الحقيقية للأحداث بشكل تقريرى. استدارا بتنمر. وقف أحدهم على رأس مصطفى، حدث زميله: من يتحدث عن المدرعات.

حدق مصطفي به:.I do هل أنت تابع لها.

فيل: نعم؟

مصطفى: هل شاهدت المذبحة؟

مال ميجور جر انت زميل فيل علي مصطفي وألصق به وجهه وفح قائلا: لا...

تدخل مايكل :?Do you see

صرخ فيل بجنون: لم نراها، صنعناها، جمعناهم كالذباب في مصيدة، ثم طرقنا على أم رؤوسهم، كانوا منتشرين في الخنادق بكميات هائلة؛ آلاف الجرذان تختبئ في جحورها، أغلقنا الفوهة وسكبنا البنزين ثم أشعلنا النيران.

ناظر جر انت فيل جنونه: ماذا يحدث للفئران؟

تصرخ وتصرخ ويصطدم كل منها الأخر في محاولة فاشلة للفرار.

تشوى لحومهم. تحترق. تتحول إلى وليمة من أجل القطط الضخمة.

تيفرنية يحاول التدخل: هاى مسيو.

لم يكن مصطفي ليسمعه. حدث الضابط الأمريكي باحتقار:

- هل أشبعت معدتك من الفئران؟

فيل:.Yes. Thousands of them

مصطفى: تجعلنى أتقيأ.

جذب جرانت مصطفي من ياقته وهتف به: تقيأ وسوف أقتلك أنت والعبدة التي تجلس معك.

انتفض إسحاق الضابط الأسود مهددا الضابطين: أحترس با رجل لما تقوله. وإلا أنا الذي سأشوى لحمك.

نزع مصطفي يد الضابط الأمريكي التي تمسك بكتفه. ودفعها بعيدا عنه. عدل من هندامه. وهتف: وحوش. ما الذي تريدون إثباته؟

- الذي يعرفه العالم.

- وما الذي يعرفه العالم ونجهله نحن؟

- نحن القياصرة نملك العالم في قبضتنا، ولو شئنا لسحقناه.

- How?

- أسأل الجغر افيا. هل تعرف شيئا عنها؟

- أسألوا التاريخ لو كنت تعلمتم منه شيء وستعرفون أن العالم لم يكن ملك لأحد.

أقترب جنديان وضابطان من الشرطة العسكرية، حذرهم مايكل، همس تيفرنية:

- جنتلمن ... من فضلكم الشرطة العسكرية.

مايكل: هدوء

وقف مصطفي محدثا حبيبة: دعينا تحرج من هنا.

نظرت حبيبة لربيكا ومانويلا : سوف نرحل.

تدخل تيفرنية: من الأفضل أن ترحلوا معهم؟

إسحاق :?why

تيفرنية : نوع من الحماية.

مايكل: سوف نأخذهم إلى هناك.

تيفرنية: أحضرا سيارتى معكم.

مايكل: أوكي.

* * * *

غابت سيارتا الجيب في الصحراء، في الأولى أطل وجه حبيبة ومصطفى، وفي الثانية أطلت مانويلا ومايكل في المقدمة وإسحاق وربيكا في الكرسى الخلفى.

انطلقت السيارتان في الصحراء وفي الفضاء كان ثمة رسالة تنقلها موجات الأجهزة السرية العاملة في الفضاء:

- رجلكم موجود في المنطقة المحايدة، من سيصل إليه أولا؟... أكرر... من سيصل إليه أولا؟

* * * *

- 19 -

على بو ابة المخيم حيت مانويلا و ربيكا و مايكل وإسحاق بقبلات حارة. بينما أخذ مصطفي حبيبة محتضنا خصرها. ضم ظهرها لصدره، بينما كانا يتحركان إلى داخل المخيم. خرجت لهما ليلي جزعة:

- هل حدث شيئا؟

مصطفى: أبدا مشادة بسيطة.

حبيبة: أين قيس؟

ليلي: نائم. أنا في غاية القلق عليه؟

حبيبة: .Don't worry dear

ليلي: جميعنا يجب أن يقلق.

مصطفى: لم ... هل عرفت شيئا؟

ليلي: شخص حدثنى عن الموساد.

مصطفى: أين؟

- في القاعدة.
حبيبة: تيفرنية !
هزت ليلي رأسها بالموافقة.
حبيبة: هو الذي جعلكم ترحلون؟
ليلي: نعم.
مصطفى: ليلة صعبة. ما الذي سنفعله؟
- حدثت أبي فقرر تشديد الحراسة.
- وهل لدينا حرس.
- طبعا القليل... تصبحين على خير حبيبة.
- أنت أيضا ليلى.
أمسكت حبيبة بساعد مصطفي وهمست وفي صوتها رنة رجاء:
- تعال معى. أرجوك.
ضمها بحنان وأخذها في طريقه للداخل. وقفت ليلي وحيدة تتابعهما وهي مستسلمة للقدر ارتعدت وهي تهمس: بونسوار.

* * * *

في الفضاء الداكن تحولت سيارتا الجيب إلى بقعتان في قلب الفراغ. غاب صوت محرك الجيب لينبت في الخلاء الممتد الصوت الخافت لطائرة مروحية، بقعة خافته أطلت من جوف الصحراء صعدت لأعلى تتحرك في الاتجاه المضاد لاتجاه سيارات الجيب الأمريكية.

* * * *

- 20 -

خيم الصمت في أرجاء العنابر، وغط الجرحى بالمخيم في النوم، تقلبت حبيبة كي تريح من وضعها، استيقظت لتجد نفسها في أحضان مصطفى، قبلت ساعده القوى، و أناخت رأسها على صدره العارى ثم عادت تغط في النوم ثانية.

فتحت ليلي عيناها للحظة حدقت من خلال نافذتها في سماء الصحراء كانت صافية مزينة باللآلئ، ابتسمت لجمالها، قبل أن تعود للنوم ثانية هاجمها القلق بجيوشه، تقلبت في فراشها وهي تترك لجسدها حريته وهي تتذكر حديث الملازم الفرنسى عن خداع الصحراء.

قيس الذي قفز من فراشه مستيقظا على حين غرة، دار حول نفسه في أرجاء العنبر، ارتطم بفراش فهد وهو يلهث استيقظ الجميع وهم يعنفونه، كان ينظر إليهم نظرة الطريدة التي لا ترى شيئا، بين فراش الأربعة جلس القرفصاء كمن يبحث عن مأوى للهرب وهو يتألم.

من الصحراء اقتربت الطائرة المروحية، ومعالمها تضح لطائرة عسكرية مجهولة الهوية. قبل أن تهبط على مبعدة تل من مخيم الصليب الأحمر قفز من بابها ملثمون في ملابس عسكرية سوداء، انطلقوا يعدون بخفة الضباع الجائعة باتجاه المخيم.

شيء ما أيقظ إلياس، أوقد النور وهو يشعر بالحاجة للتبول، غادر غرفته في طريقه لدورات المياه، بينما كانت الضباع الملثمة تعبر الساحة إلى البوابة الداخلية. تلقى الحارس ضربة بعنف المحترفين فسقط على الأرض دون أن ينبث بحرف، تقدموا في الممرات إلى عنبر الجرحى.

أنهى إلياس حاجته من دورة المياه، متوجها إلى ممرات العنبر عائدا لغرفة نومه حيث كان قدره ينتظره. حركة غريبة في الأمام، توقف لحظة حدق في الفراغ بقلق، تقدم ثانية حيث كانت الضباع تعبر الطرقة الداخلية لعنبر الجرحى، لمح قائدهم اللبنانى الشاب، أعطى إشارة بالتوقف، اختفوا جانبا بلمح البصر بانتظار إشارة القنص. ظهر إلياس قادما بطمأنينة، نهشته قبضة وحشية قاصمة من قائدهم المدربة على كل أنواع القتل القذر في مؤخرة الرقبة أعقبتها دفقة هواء مكتومة من إلياس سقط بعدها صريعا والدماء تتدفق من أنفه وعينيه.

استيقظت ليلي وقد شعرت بخيالات وحوش سوداء تعبر زجاج غرفتها، صرخت صرخة مكتومة: قيس.

قفزت ترتدى ملابسها على عجل وعلى وجهها كل ملامح الرعب.

في الطرقة الداخلية لعنبر الجرحى كان عدد من الضباع ترتدى ببرود وثقة عدد الأقنعة الواقية من الغاز، من خلف زجاج العنبر الداخلى ظهر اللون الأبيض لغاز ينتشر من قنبلة غاز ألقيت لتوها بداخله. إلى داخل العنبر تسلل المهاجمين، كان كل جرحى العنبر مغشيا عليهم. اجتمعوا حول الجسد الغائب عن الوعى، في ثوان نهشوا

ملابسه، أخرج ثالث جهاز سكانر ضوئى خاص برفع البصمات، قام بمضاهاتها في جهاز كمبيوتر دفترى. عندما انتهي الملثم، تحدث بصوت خافت: أنه هو. أحضروه؟

في الطرقة الخارجية كانت ليلى قادمة من الاتجاه المضاد. تعثرت في سلة مهملات. فأحدثت صوت خفيف، أعطى القائد إشارة الصمت وتوارى المقنعون ثانية، عبرت الفتاة قادمة من الاتجاه المقابل وهي تستكمل ارتداء ملابسها. أشار قائدهم لملثمين. ضربة عنيفة في الظهر سقطت ليرتطم رأسها بالأرض مغشيا عليها.

من عنبر الجرحى غادرت المجموعة الأولى المقنعة مخيم الصليب الأحمر حاملين جسده، بينما كانت مجموعة أخرى تقتحم حجرة مصطفى، لم يجدوه، اندفعوا يفتحون الحجرات واحدة تلو أخرى، وجدوه بين يدى حبيبة، ضربة في مؤخرة الرأس ثم انطلقوا به صوب الحوامة، نادى قائدهم: حصلنا عليهما.

في جحيم الليل اندفعت المجموعتان، قفزا داخل الحوامة واحدا خلف الأخر والمروحية تصعد للسماء، ولم تلبث أن غابت إلى قلب الظلمة.

* * * *

- 21 -

ملتحفة بالظلمة ارتفعت من الأفق الشاحب المروحية متجهة إلى موقع غامض يقبع في قلب الصحراء، قلعة حجرية قديمة تنتمي لعصور موغلة في القدم، أخفيت بمهارة في ضباب ليل دائم الحلكة، يسمع عنها أولئك الذين أعطوا مصيرهم وسلموا قدرهم للحرية، ولا يدرك مكانها إلا رحال الأمن الخاص بالأباطرة والرؤساء المتيمين بالسلطة والقبضة الغاشمة، ومخابرات الأحزاب التي تظل على سدة الحكم حتى اغتيال السيد الرئيس.

كانت تقف في فراغ كرتونى تحيط بها أسلاك شائكة ومقاومات أرضية، ومدرعات من صلب فضائى متعدد الطبقات وجنود حراسة نسخوا من ملفات وطبعات مكررة لأنماط استخرجت بعناية من سدة العنف والكراهية؛ وجوه مستديرة تبك بالدم الأسود، مطعجة من كاوتشوك الشاحنات العسكرية الثقيلة، وشفاه غليظة تغطيها شوارب سوداء شديدة الكثافة، تتدلى من فوق رؤوسها وتغطى أقفيتها العقال العربى، يتحركون في الأنحاء في خطوات ميكانيكية مثل ريبوت ألعاب الفيديو.

ثمة قاعدة جوية دمرتها قوات التحالف، فأطاحت بمنشآتها عن أخرها، وهشمت طائرتها الحربية وجعلت منها تماثل مستودعاً لسيارات المتهالكة، وتحولت ممراتها إلى غابة من الحفر وكتل الإسمنت الناجمة عن انفجار القنابل المضادة للممرات. وعلى مبعدة كيلومترات قليلة من هذا الخراب وقفت القلعة القديمة شامخة دون أن تمس وكأنها تراث إنسانى اجتمعت جميع الأطراف المتحاربة في اتفاق غير مكتوب على الحفاظ عليه، وحمايته من الدمار الذي تخلفه الحروب. ولو أن أحد تمكن من التدقيق قليلا لشاهد كيف كانت القلعة تمد بكافة المنتجات العادية والخاصة وتذود بالتقنيات العالية من جميع أنحاء العالم وبمو افقة جميع الأطراف.

من وراء الأفق اقتربت المروحية حثيثا، توقفت في الفضاء فوق الساحة الداخلية للقلعة وشرعت في الهبوط، قفزت الضباع الملثمة يدفعون أمامهم بكعوب بنادقهم بضراوة الفتى الذي كان يحلم في قميصه المفتوح وبنطاله الكاكي معصوب العينين، ربما كي يتوقف عن الحلم، قيد ساعديه للوراء، ومن خلفه مصطفي معصوب العينين، لا يدرك شيئا عن ما يدور حوله، سمع قائدهم يصرخ: عجلوا... بسرعة.

انهال الملثمين بكعوب بنادقهم على ظهره، تعثر الفتى وخلفه مصطفي في طريقهم لداخل القلعة يخترقون عدد من الممرات الحجرية، انشقت النهاية عن باب حديدى، عندما فتح كشف عن معمل حديث لإحدى محطات الأبحاث البيولوجية.

خلف حائط من زجاج سميك وقف كائن خرافي خلف نظارة سوداء يرتدى بزة عسكرية خالية من الرتب، يحمل على جسده نسخة معدلة من وجوه عساكره، سوبر في وحشيتها تعبر عن مكانته المهيمنة التي تحمل سلطة إله وطاغية؛ وجه مستدير يحيط به العقال العربى، يبك منه دم مفصود من جروح الضحايا وعقليته النتنة، جلد سميك مطعج من كاوتشوك الشاحنات العسكرية الثقيلة، شفاه غليظة

يغطيها شارب أسود كث، تكشف عيونه الغائرتين مثل بئرين نضبا من الماء وقد التمعت كل منهم بما حوت من عقارب وحيات وعناكب سامة تخوض حرب داخلية لا تنتهي معبرة رغم كل ضراوتها عن سادية عاجزة عن الإشباع، وماشوسية غير قادرة عن الاعتراف أو جذب الانتباه للون الوجه الطحلبى الشديد الاخضرار. خلفه انتصب الضباع في عقالها العربى وملامحها الزجاجية يبدون كنوع من ألعاب الحرب.

أُلقى بالفتى على منضدة معدنية، بينما دفع مصطفي بإهمال إلى أحد الأركان، يشاهد قيود جلديه تثبت جسد الفتى في مكانه بحنكة ومهارة المحترفين، تقدم نحوه أشخاص نزعت ملامح وجوههم، جرى توصيل أطراف الفتى ودماغه بعدد من الأسلاك الكهربية الدقيقة، ثبتت بلواصق طبية خاصة، أظلمت الحجرة، أشار الطاغية الو اقف خلف الزجاج السميك لمعاونيه، ضوء باهر سقط على وجه الفتى، خلع المهيمن قفازه وصوته يهز أركان المعمل: ما أسمك؟

- قيس بن الملوح

- ها... جنسيتك؟

- عربى من تهامة

- عمرك؟

- عمر الزمن الضائع

- لماذا هربت من مركز الأبحاث؟

- أبحث عن العامرية.

- أين كنت تنوى الهرب؟

- حيث التقى بحلمى.

- أى حلم؟ غير مسموح لأحد بالحلم خارج حلم الزعيم القائد.

- رأى مصطفي شاشة ضخمة تدلى من السقف، تترى عليها صورة الفتى، يحدثه الرجل: أهذا أنت؟

- ...

- تتوالى الصورعلى الشاشة:

- الفتى يبدو في مبنى جامعى، حاملا كتبه.

- الفتى على باب منزله عدد كبير من السيارات العسكرية، والجنود شاهرى السلاح، الفتى يندفع إلى الداخل.

- صورة للفتى يقف بين عائلته.

- الفتى يندفع إلى الداخل.

- رجل في منتصف الأربعينات يبدو وكأنه الأب يحتضن زوجته وطفل صغير.

- الرجل الأخضر يشير إلى الرجل الو اقف بالصورة: ما الذي تعرفه عن هذا الرجل.؟

- ...

- ألا تتذكروجه والدك؟

- الرجل يشير إلى صورة فتى يحتضن والده: ما الذي تعرفه عن هذا الفتى؟

- ...

- أنه أنت... ألا تتعرف على نفسك؟

- ...

يشير المطلق القدرة إلى معاونيه لرفع مستويات الطاقة الكهربائية... الفتى يعوى، مصطفي يحتضن نفسه وهو يتألم.

- ألم تتعرف على نفسك؟

- ... عواء

الطاغية يشير إلى معاونيه لرفع قوة الشحنة الكهربائية ثانية... الفتى يعوى في عواء حاد.

- هاذا هو أنت.

- لا فقد مت في الزمن القديم.

- ما الذي تعرفه عن الحاضر؟

- آ هـ هـ هـ ...

قبل أن تزيد شحنة التعذيب مصطفي يضم رأسه ويبكي، يسرع الفتى بالقول:

- لا أعرف، كل شئ غريب عنى...

- ما الذي تعرفه عن الدكتور المشد؟

- ...

- أنسى أوهامك وألعابك الصغيرة و انتبه لما سيحدث لك.

اختفي المهيمن ذو السطوة والقدرة الكلية تاركا استكمال عمليات التعذيب لمعاونين أكفاء، ظهر فجأة أمام مصطفى، أرتعد فرقا، أشار إليه، قام مصطفي خلفه تاركا الفتى وقد تحلق حوله جمع من الزبانية. بعد مدة كان العرق البارد يغمر وجه الفتى، وقد نزعت عنه عصابة العينين، كان لا يزال جالسا القرفصاء على المنضدة المعدنية، تمسك الأسلاك برأسه وأطراف جسده العارى تمزقه آثار التعذيب المضنية؛ جروح غائرة تطفو فوقها الدماء، وضباع تنهش أصابع كفه المفرودة بأنيابها، تتحول الأصابع لكتلة من اللحم الدامى، والفتى يطلق صرخات موجعة بالألم الحاد، وفي الجهة المقابلة كمن عدد من

الضباع تدفن حريق سجائرها المتوهجة في أجزاء حساسة من جسده، فتح الفتى فاه من الرعب، ارتفع رأسه لأعلى، فوهة تنفتح فوق رأسه بالمياه المثلجة، يشهق الفتى وهو يشعر بالمياه المثلجة تمحو الألم بموجات تالية من آلام لا نهاية لها.

في غرفة جانبية نزع الرجل قناعه الكاوتشوك كاشفا عن وجه بيضاوى أملس وعيون زجاجية، ابتسامة واسعة وشفتين رفيعتين رحلت شواربهما وكأنها لم تنبت قط.

عاد الرجل حاملا الوجه الصريح الأملس ولونه الأخضر الطحلبى للماسك، وخلفه خرج مصطفي يتقيأ الدماء، وقد شوهت معالم وجهه، وقفت شرزمة الضباع مشدودى القامة، أشار إليهم:

- نشطوا الذاكرة.

شاهد مصطفي موجات كهربائية تزحف متلاحقة ناحية قيس، تلامسه، تتغلغل داخل عقله الفتى، موجات متلاحقة من الارتعاشات تنشر في أرجاء الجسد الضعيف، وفي فضاء المعمل تصاعد من الفتى عواء خالص. ثوان من الصمت شاعت في فضاء غرفة التعذيب، قبل أن يعود صوت الطاغية: أسمك؟

- قيس بن الملوح

- جنسيتك؟

- عربى من تهامة

- عمرك؟

- عمر الزمن الضائع.

- لماذا هربت من مركز الأبحاث؟

- أبحث عن العامرية.

- أين كنت تنوى الهرب؟

- حيث التقى بحلمى.

- ما الذي تعرفه عن البرنامج النووى العراقى؟

- أرض العراق عراقى.

- هل لك صلة بالمخابرات المصرية؟

- وفي مصر مهدى ورقادى.

- ما الذي تعرفه عن مشروع الدكتور المشد السرى؟

- وسر سريرتى نقائى.

أضيئت الشاشة مرة ثانية، تابع مصطفي صور عائلة الفتى تستعد للسفر وأمامها تجمعت حقائبها كاملة، رأى الفتى صورته وهو يعانق سيدة عجوز تبدو أمه، وهلة وظهرت صور الرجل ذو الشوارب الكثة يقوم على استجوابه الفتى.

- هل ستتركنا وترحل دون أن تخبرنا؟

- ...

- أين هرب زملائك؟

- لا أعرف لقد افترقنا في النجف.

- لماذا هربوا؟

- أسالوه بأنفسكم. سيدى من أنت؟

- أنا الرجل ذو القناع. ألا تعرفنى؟

- أنت رجل الكارتون.

- أنت فتى ذكي... ساعدنا وأخبرنا عن المكان الذي هرب إليه أصدقائك.

- ما علاقة رجل الكرتون بالبرنامج النووى العراق.

ضحك الرجل الماسك وضحك وضحك... امتد وجهه ليسع المكان بأكمله... طار وصعد في فضاء غرفة التحقيق، أشار إليه ثم فجأة انقض عليه كي يتلامس الوجهين: أسئلتك تنم عن غباء حاد...

- ألن تخبرنى؟

- برنامج ناجح عن زرع بكتريا مضادة تجعل الأشخاص المهمين عملاء جيدين لنا، أصبحنا قادرين على إجراء تعديلات وطرق لا نهاية لها تتفق جميعها على تنفيذ سياستنا في النهاية، الآن أخبرنا لماذا هرب أصدقائك؟

- اكتشفوا أشياء غريبة فهربوا...

- يجب أن تجدهم.

- لن يقبلوا تنفيذ سياستكم.

- لا. العرب بيئة مدهشة لهذا النوع من البكتريا. لم يسبقهم في وداعتهم سوى هنود أمريكا الجنوبية، استقبلوا الرجل الأبيض استقبال الفاتحين، ثم لعقوا أحذيتهم مثل كلاب جائعة. وقدموا نحورهم قربان لنصاله على مذبح السيد المسيح، في الوقت الذي كانت نسائهم تتمدد على مذبح فراشه ابتهاج بسطوته. اذهب وقل له كما قال نزارقبانى لنسائه؛ أرجع إلى فأن الأرض و اقفة كأنما الأرض فضت من ثو انيها... هها هها هها.

- لن يقبلوا قط.

أنظر حولك لن ترى سوى قادة وزعماء مختلفين بين معادى ومؤيد ولهذا يتقاتلون ضد بعضهم البعض بشراسة نادرة، لكن الجميع ينفذ مصالحنا العليا تطبيقا لقواعد التنوع الخلاق، ماذا لو ساعدتنا أنت على تفهم الخطأ الذي ارتكبناه.

- عندما اشتركنا في البرنامج النووى العراقى كان البرنامج موجه لإسرائيل، لم تكن الكويت على اللائحة. ولهذا لم يستطيعوا البقاء من اجل أحلام مجنونة.

عاد القناع ذو الوجه الكاوتشوك والشوارب والشفاه الغليظة: حسنا هذا أمك، وأنت لن تغادرنا، لديك عقلية علمية نادرة، نحن في حاجة إليها؟

- لكنى اتبع ما أومن به.
- وأنا الرب الذي يؤمن به الشعب العربي.
- أنت الطاغية الذي قتل أطفال الشعب الذي أمن بك، أرحل عنا واذهب للجحيم فهو في انتظارك.

على الشاشة تظهر صورة علماء يعدمون بالرصاص. تنقلت عينا مصطفي بذهول بين صورة الشاب الملقى على الشاشة والشاب الملقى أمامه في قيوده على المنضدة الباردة ...عبرت ذهنه كالبرق خطرات... حقيقته الشاب العابث مع الفتاة الفرنسية تتكشف له ...سلوكه معه، غمره الخجل والتضاؤل، انكمش على ذاته، صوت إطلاق رصاص صادر من الشاشة. السيدة تترنح، اندفع الفتى يحمى أمه، شهق الفتى، رصاصة أخرى تصيب طفل صغير، الصوت المطلق القوة يهدر في غرفة التعذيب يعيده إلى اللحظة الحاضرة: ألم تنشط ذاكرتك بعد.

المهيمن يشير لمساعده تندفع شحنات الكهرباء تسرى في الجسد المتهاوى، يمتلئ فضاء الغرفة بعواء عات مجدول من الألم والحزن، يسقط الفتى مغشيا عليه. صوت يحدث الرئيس: سيدى... إنه يعانى من حالة هروب في الذاكرة. إنه يحلم الآن.

المهيمن المطلق القوة ينشطر شطرين في سماء قاعة التعذيب بين القناع صاحب الشوارب والماسك الأخضر يصرخ بغضب: لا مكان للأحلام في الشرق الأوسط... لا مكان لأنبياء جدد...

النصف الثانى الو اقف على أرضية القاعة في عقاله العربى يصيح بلهجة آمرة: انزعوا عيونه لا مجال لأحلام الحمقى.

* * * *

ساق الملثمون الفتى عبر ممرات حجرية متآكلة تشع منها الرطوبة، تهرع في أرجاءها الجرذان والحشرات، باب حديدى تتوسطه ثلاث حلقات حديدية. تئز أرجاء الزنز انة بصوت المزلاج الحديدى. رفعت الحشرات والهوام والزواحف التي تتسلق جدران القبو الحجرية رؤوسها تتطلع في وجوم للزائر الجديد، وأمام عينيه لمح الفتى المنهك ثعبان هائل يحدق في وجهه، لحظات قبل أن ينقض مباشرة بجواره ليلتهم أحد الجرذان المذعورة.

ألقى بالفتى داخل الزنز انة، سقط يتلوى على قاع ليس له قرار، هل كان يحلم؟ لا يدرك، هل كان ما يراه حقيقة؟ لا يدرى، فقط لم يكن للزنز انة الحجرية قاع، كان يهوى وهو يترنح لأسفل بلا توقف داخل جب عميقة لا نهاية لها، على جدرانها توالت صور...

جولدا مائير، السادات يخطب تحت العلم الإسر ائيلى بخطيه الأزرقين الذين يمثلا نهرى النيل والفرات، معلنا حلول السلام النهائى بين إسر ائيل والعرب...

يسقط الفتى في هاوية الماضى وتتوالى الصور؛ حرب أكتوبر يرى ذاته ضابط يطل من إحدى المدرعات المصرية يعبر قناة السويس، يهبط الفتى يقبل أرض سيناء المحررة.

يسقط الفتى في بئره وتتوالى الصور، المدرعات الإسر ائيلية تنهب صحراء النقب والضفة تقف على مشارف قناة السويس، مظاهرات الطلاب في الجامعات المصرية تطالب بالحرب، آلاف اللاجئين الفلسطينيين يعبرون نهر الأردن، موسى ديان يجوب أرجاء القدس الشرقية في لباس الحرب يبتسم في سعادة بالغة، عبد الناصر في

خطاب التنحى، المدرعات الإسرائيلية تنهب سيناء في 1956، المظليين البريطانيين والفرنسيين يسقطون بالمئات على بور سعيد، بينما تتلقاهم المقاومة بالرصاص، الجنود الإنجليز يفتحون النار على الطلبة فوق كوبرى عباس، تختلط الصوروتتداخل، قيس يقف خلف عرابى أمام الخديوي توفيق في قصرعابدين، يحفربين الفلاحين قناة السويس، سياط المماليك والأتراك تطارد الفلاحين، نابليون بونابرت ... المطبعة الفرنسية وهي تعمل، سليم الأول يدخل مصر، أسواق النخاسة، قيس مغنى على الربابة يقف وسط الفلاحين يغنى لعلى الزئبق وطومان باى المعلقة جثته على باب زويلة.

جوارى يرقصن في قصور العباسيين، يمد الثعبان لسانه يجذبه نحوه ويلقى به مكورا أمامه، ينم وجهه عن ابتسامة فاجرة، تعلوه عمامة ضخمة ليبدو الوجه القبيح للحجاج بن يوسف الثقفى، من المؤخرة تقدم عقرب عملاق، كان المنصور السفاح، اشتبكا في عراك دموى عنيف، تقطعت أشلاء كل منهما، يغوصا كل منهم في لحم الأخر، كانا يتوحدان وكلاهما يضحكان كالصدى، ثم صار الصوت واحدا. يصعد من اتحاد وجههما وجه معاوية يفح في وجهه:

- أو تهرب منى ولم يستطع ذلك لا على ولا الحسن والحسين، هدمنا الكعبة على رؤوس المصلين بها، فمحونا وجودا وأوجدنا وجودا، وجعلنا سيوفنا على رقاب الناس فصارالهواء يتنفس بنى أمية.

في مؤخرة الثعبان نبت عنكبوت أحتوى بنسيجه الرخو القاتل جسد الفتى، تسللت أطراف العنكبوت إلى عينى الفتى، اخترقتهما سال خيط رفيع من الدم وجحيم من الألم، عواء حاد يلف أرجاء الزنزانة.

* * * *

- 22 -

عائدا من هاويته المضنية، تقلب الفتى على أرض الزنزانة الحجرية، يمسك بعيونه المقتلعة متألما، لا يرى شيء، كان يبكي دون صوت، بينما جرذ يقرض أنامله. تحامل مصطفي على آلامه دفع عنه الجرذان، فتح باب الزنزانة، دخلت ضباع حيوانية مقنعة، سحلوه على الأرض الحجرية عائدين به إلى غرفة التعذيب، فتح مصطفي عينيه بصعوبة، كان الرجل الماسك وتوأمه الطاغية يطلان عليه من نافذة الزنزانة، تابع الفتى يغادر الزنزانة منهار، تحدث بصعوبة: إلى أين تأخذونه، كفاكم به عذابا؟

* * * *

سألته النسخة ذات الشارب الكث للمرة الأخيرة: هل أنت مدرك لوضعك الحرج؟

بتواضع بليغ غمغم الفتى: الحق أقول لكم بالحب أبشركم.

انطلقت قهقهات مجنونة في أرجاء القاعة، مد مخالبه، شق بطنه، قبض على كبده، نزعه وغاص فيه بأنيابه، تساقط الدم من شاربه

وهو يقهقه: تخليت عن شعر قيس، وارتديت مسوح عيسى، مرحى بالمجنون وما اسمك الآن؟

- حلم

- وماذا عن قيس وليلى العامرية وماذا عن الفرنسية الحلوة الصغيرة.

- كلهم أحياء في جسدى.

- حسنا سنضيف أشياء أخرى لجسدك !! أحكي لنا عن معتقداتك؟

- عربى من تهامة؟

حسنا عربى من تهامة، كلنا عرب من تهامة، ولكن إلى أى عقيدة تنتمي، شيوعى قومى منشق، ناصرى، أصولى إرهابى؟

ارتفع الفتى في الفضاء كحلم، فال بعذاب: أنا إنسان في مقتبل العمر يستطيع أن يحلم. أمنيتى لو لم أتوقف عن الحلم.

قهقهت النسختين للفكاهة: رفعت النسخة ذات العقال إصبعها وأشارت لمعاونيها واختفت وهو تقول: ولدينا للحالمين كوابيسهم.

* * * *

فتحت الأبواب الحديدية، قفز إلى القاعة عدد من النسح المعدلة لضباط الصف المنتمين لأجهزة الأمن السرية، وجوه كاوتشوك، شوارب وشفاه نمطية غليظة كثة تدور مقلتيها في عيونها بحثا عن فرائسها، دفعوا الفتى وألقوا به أرضا ينفذون الأوامر؛ وبينما كان ينوء بين سواعدهم الفظة، بدءوا في خلع سراويلهم كأول طقوس الاغتصاب

* * * *.

سمع مصطفي صرخات قيس، فانكمش، وعاد يحيط جسده بساعديه وقد اندفع إليه زمهرير وحشى، بكي وبكي وبكي، صرخ وضرب جدران الزنزانة بقبضتيه حتى أدميت:

- إنه مجرد طفل! ألهذا الحد تكرهون البراءة! حلم... مجرد حلم... ألهذا الحد تكرهون الأحلام! إنه حلمنا، لماذا تغتصبوا أحلامنا؟ صرخ بجنون: أيها القوادين في زمن القتل لماذا تغتصبون أطفالنا؟

بعد صمت مرير سمع مصطفي أبواب الزنزانة تفتح، قام يجرى إليه يحتضنه، انهالت تنهشه أنيابهم. لكنه أصر أن يحميه بجسده منهم.

* * * *

بعد إغماءه طويلة، فتح مصطفي عينيه، كان الفتى ملقى بجواره على أرض الزنزانة الحجرية مصلوبا على صليب خشبى، تماما كما رغب وقد استطال شعره، ولأول مرة بدا له ملاك مكلل بالشوك ينزف من أطراف المصلوبة دماء، أسرع والدموع انهار تجرى على وجهه يحاول أن يخفف آلامه. عندما فتح الفتى عينيه همس:

- لا تبك

- كيف لا أبكي يا سيدي... كيف لا أبكي؟ كيف لدموعى أن تتوقف؟ كيف أشبع ندمى على أخطائى التي اقترفتها في حقك؟ ولو أنى فقط تنبهت؟ لو أنى فقط أعملت عقلى لسماء لا تحد، بدلا من جعلها ماخورا لنو اقصى الجسدية واحتياجاتى الدميمة المنحطة مثل حمار ينشد زريبة وغبيط لحمل الأوزار، لو أنى تصرفت بالجدية اللازمة وخاصمت موانى السخرية، إلى بحار الجد لما حدث لك ما حدث.

- اغتصبوا جسدى.

عوى مصطفي وكأنه يعوى أحلامه المنهوبة وانهار في بكاء مر. همس الفتى:

- لا تبك... يستطيعون أن يغتصبوا جسدى، لكن لا أحدا يمكنه أن يغتصب روحى.

لم يستطع مصطفي أن يتوقف عن البكاء، سمعه يستطرد:

- من يستطيع أن يأسر الأحلام.

انهار على يد الفتى يقبلها، وهو يهمس: أعذرنى يا سيدي أخطأت في حقك، لم أفهمك كما ينبغى لى أن أفهمك.

- ما كنت في حاجة كي تفهمنى، لا ينكر المرء أبنائه. كما لا ينكر المرء أحلامه.

حدق مصطفي في جدران الزنزانة الحجرية عاجز عن الفهم: ربما قد عجزت عن الفهم أيضا يا سيدي. من أنت ومن تكون؟ عالم قتله الطغاة، أم مستقبل أغتصبه ثلة من السفاحين؟ لو كنت أيهما لفديتك بدمى ولو كنت نبى في زمن خلا من الأنبياء لتبعتك لأخر بلاد المعمورة.

- ما أنا بنبى وما كنت لتتبعنى فأنت لست مؤهلا لحمل رسالة، وإنما أنت امرؤ ساقته أحلامه الصغيرة إلى المنطقة المحايدة لأطراف الصحراء حيث الأقنعة ولدت هنا، في حياة خلت من الكرامة وتداعت أسفلها أعمدة الشرف كي تلتقي بحلم أمة. سوف تغوص بفمك في دمى كما فعل الآخرين.

- لا ... ربما كنت أعمى ولكنها التجربة تعلمنى.

حرر الفتى يده، عندما نظر مصطفي يده كانت مخضبة بدمه. بعصبية مفرطة حاول أن يمسح الدم عن يديه خفية، وكأنه يحاول أن ينفي عن ذاته اشتراكه في قتل الفتى... لكنه شعر بكف الفتى تحط

على رأسه مثل فرخ حمام، غمرته الراحة، كان الآن على يقين بأنه شارك في قتل هذا الفتى، لكن هل شارك في اغتصابه... جأر ثانية بالبكاء أن فعل... حاول أن يمسح يده لكنه شعر بلل على فمه وعندما مسح فمه كان مذاق الدم يبلل أطراف لسانه، داهمه جزع الأحلام ذات الكوابيس المضنية، سمعه يهمس له:

- وحدك لم تفعل.

غمرت مصطفي روح التطهر وقال: وحدى لم أفعل.

استطرد مصطفي والراحة تغمره: فلست الخاطئ الوحيد.

- اغتصبنى حكامكم وغاط في دمى الشعبويين.

رفع مصطفي رأسه وقال بفرح: ربما من أجل ميلاد جديد؟

- كيف؟ وأنتم تغتصبون أطفالكم، مثلكم مثل قوم لوط، صحت عليكم اللعنة.

أسلم الفتى الروح، هبط مصطفي على قدميه وركع يغسل دمه عن جسده بدموعه، ظل يبكي والدموع جداول صغيرا من المياه الأرجوانية، عندما صار الجسد نظيفا من الدم كموج النهر انهار مغشيا عليه.

* * * *

في ظلمة الليل شعر مصطفي بشيء رقيق يوقظه، وأمامه كان ثمة طاقة من الضوء تنفتح في جدار الزنزانة. كان الفتى محلقا أمامه يبتسم مغسولا بالضوء ويشير إليه كي يتبعه. همس الشبح: هل تتبعنى؟

همس مصطفى: إلى آخر بلاد الأرض؟

أجاب الشبح: هي الصحراء حيث الخلوة والوحدة والوجود المطلق، فلا سفاكين للدماء ولا من تنهبهم نار الرغبة في الثأر والموت.

- سوف أحمل رسالتك لكل الدنيا.

- لن تفعل فلست المختار.

- لماذا يختارني قدري، لماذا لا اختاره أنا.

ابتسم الشبح وغمغم: خذنى إلى الصحراء حيث وجدتموني أول مرة.

- كيف لى أن أعرف؟ وهل ثمة علامات؟

* * * *

كان الظلام يحيط بهم والعاصفة تتهيأ لابتلاعهم، وأمامه تهاوى جسد الفتى مسجى على الرمال، وتلك البوصلة الخربة تتدلى من رقبته. تشير إلى الغرب، حمل مصطفي شبحه على ظهره خفيفا كنسمة هواء يوم ربيعى، مضيئا كحزمة من ضوء القمر، وشرع والعاصفة رياح تعوى يشق طريقه في قلب الصحراء، تأكله ذرات الرمال، والرياح العاصفة، وفي يده تلك البوصلة الخربة التي قادت الفتى من قبل باتجاه المنطقة المحايدة.

* * * *

- 23 -

والهزيع الخير من الليل يوشك على الرحيل فتحت ليلى عينيها، شعرت بروحه معها في الحجرة. مادت بها الأرض، قامت تحاول التماسك، ثمة ضوء يدعوها أن تتبعه إلى الخارج، على البوابة الخارجية كانت حبيبة تقف وحيدة تتطلع للصحراء، أسرعت ناحيتها، تطلعت كل منهما إلى الأخرى، همست ليلى: شيء ما أيقظني من نومي.

قالت حبيبة بتوجس: قلبي يحدثني أنهما في حاجة للمساعدة.

- ربما كانا تائهين في الصحراء.

- دعينا نبحث عنهم.

- وهل سنجدهم؟

- لديك سابقة خبرة في العثور على المفرطين في الوهم، الضالين في أحلامهم.

* * * *

***في قلب الظلمة سار مصطفي خفيفا مثل طير، وداخل الزنزانة الحجرية كانت النسختين المتطابقتين الملتصقين عدا الرأس يتقاتلان، الرجل الماسك الأملس الأخضر الوجه في قبعته القادمة من تكساس، ونسخة الرجل ذات العقال العربى صاحب الوجه الأجعد والشوارب الكثيفة يحدقان في تلك الطاقة المفتوحة في الجدران الحجرية الصلبة، صرخ الماسك في الرجل ذو الشوارب:**

- قلت لى سوف تهدم حلمهم.
- أولم أفعل؟
- ها قد صار الحلم طليقا.
- لا لم تفعل، وعليك أن تفعل، أنت صنعيتي، ولو شئت لعملت لك دليت، وألقيت بك سلة المهملات.
- وماذا أفعل أكثر مما فعلت! سجنتهم في سراديب زنازيني، سملت عيونهم، خلعت أظافرهم بكلابات العصور الوسطى الصدئة، اغتصبتهم، جعلت الإعدام مصير كل من يخالف قوانينى والسيانيد شراب لمن كانت روحهم أشد صلابة من هيمنتى، صارت غياهب السجون وعذابها أشد ظلمة من عذاب قبور المولى سبحانه، أما أعوانى فكانت مسدسى قدر لموت كل من يخطر بباله معارضتى، والأحياء من شعبى حولتهم لموتى الرعب الجاثم في الهواء، كنت طاعون يتنفسونه، فقطعت يد السارق وجدعت أنف المعارض، وخلعت أذان الذي يستمع لإعلامكم وترهاتكم، شوهنا الجسد كي ندمر الروح، فإذا هربت الأحلام من طاقات السجون فتلك المهمة سلاحها لديكم.

غمغم الماسك: حلم ينبع من الشرق الأوسط تلك مصيبة المصائب. فليس ثمة حلم سوى الحلم الأمريكي يكفينا موسى وعيسى ومحمد.

* * * *

شقت الفتاتان طريقهما في الظلمة، وعلى أنوار الجيب كانا يمسحان الصحراء بحثا عن أثر للتائهين، مع أشعة السحر الأولى شاهدا شبحا يخوض في الرمال باتجاههما، صرخت ليلى: ها هما.

كان مصطفي قادما من بعيد خفيفا طليقا حاملا شبح الفتى على ظهره.

* * * *

عندما تمدد الفتى على ظهره، كان مسمل العيني مقتلع الأظافر، مدمى الأنامل والكفين، بكت ليلى واحتضنته وهي تهتف: أى طواعين حلت في هذا المكان،؟ أى لعنة باقية ولا يزال عليكم دفعها؟ أى خطيئة بتنفسها الهواء.

أمسكت كفه، تلك التي ظلت تقسم فيما بعد لنفسها ونادرا إلى أبوها إنها أمسكت بأنامل ملاك.

سمعته يهمس:

تكاد يدي تندى إذا ما لمستها

وينبت في أطرافها الورق الخضر

ابتسمت بفرح وهتفت: يا حبيبى تعالى إلى.

ضمته برفق وهي تعلم أنه شديد الهشاشة، بينما كانت حبيبة تود أن تسأل مصطفي عشرات الأسئلة إلا أنها لم تجرؤ، الآن فقط تراجع وهو لا يرفع عينيه عن الفتى، كان يشعر إنه يرتاح على صدر الفتاة الصغيرة، لحظتها مد يده يبحث عن كف حبيبة، فلما وجدها ترك لها كفه تعتصرها من الشوق والخوف والحنين.

سألها: ما الذي جعلكم تخرجون للصحراء في هذه العاصفة.

فتحت عينيها على سعتهم تملأهما بوجهه: رؤيا... شعرنا أنكما في مكان ما تائهين في الصحراء... حلم هتف بنا أن نهرع لمساعدتكما.

أدار رأسه وطفق ينظر عبر زجاج النافذة إلى الظلام... سمعها تسأله: كيف تمكنتما من الهرب؟

هز رأسه نفيا: لم نهرب.

نظرت إليه مستطلعة، فأستطرد: استيقظنا فلم نجد شيئا.

- ماذا تعنى!!

- استيقظنا وجدنا أنفسنا وحيدين في قلب العاصفة، لم نجد لا قلعة ولا سجن ولا حراس، كان كل شيء كالسراب...

- أى قلعة؟ وأى سجن؟

* * * *

قرب معسكر الصليب الأحمر همس الفتى: أصعدوا بى إلى المغارة أعلى التل.

صاحت ليلى: أرجوك أنت في حاجة للعلاج.

أفتر وجهه عن ابتسامة مضيئة ونظر لمصطفى، الذي نظر لها في صمت. صرخت ليلى: ماذا؟

همس مصطفى: إنه ميت.

احتضنته ليلى وهي تبكي: كنت أعلم أنك حلم يعبر حياتى كملاك. ضغط يدها، هزت رأسها مستسلمة وقالت: لنذهب لمغارته فأنى أعرفها.

في تلك اللحظات كان النسخة المعدلة ذات الرأسين المكونين من القناع ذو الوجه الأملس الطحلبى الخضرة والقبعة التكساسية ،

والقناع ذو الوجه الثقيل الكاوتشوك، الشوارب الكثة والعقال العربي ينقسمان على طولهما ويندفعان على طول أرض العراق يزرعون الصحراء بقضبان اليورانيوم المخصب، في شبكة طوبغرافية منظمة تغطي أرض العراق والقناع ذو العقال يصرخ مع كل عقلة يورانيوم مخصب: لا حلم خارج حلم الزعيم.

بينما توأمه القناع ذو الوجه الأملس الطحلبي الخضرة والقبعة التكساسية يهلل مع كل عقلة يورانيوم مخصب: سمووووكي ... اقتلوا أطفال العراق اقتلوا أطفال العرب ... سمووكي لا حلم جديد في الشرق الأوسط...

* * * *

- 24 -

في جوف المغارة تمدد ملاك غط في نوم كابوسى، وجهه الشاحب يشع بالضوء، مثل أكليل من الشوك استرسل شعره على صدره العارى، على مدخل المغارة جلس فهد، ابو الجاسم، آدم، مروان، مبتورى السيقان، بجوارهم عجلاتهم المتحركة، حوارين يتناولون الطعام ويلعبون السيجة، بينما أبو كريم يصنع لهم مشروب التمر... عندما أوشكت الشمس على المغيب استيقظ مخدرا كالتائه، تحلق الجميع حوله ممسكين بأنفاسهم، أخذته ليلى إلى الخارج، أجلسته على قمة الصخرة التي احتضنته فوقها، انتصب عليها مثل ناسك عجوز من قبائل الهنود الحمر، يدعو روح أجداده العظام الساكنين السحاب.

امتدت الصحراء حيث حاد العرب الأوائل قوافل الجمال، استدار قيس ناحيتهم فتطلعوا إليه وقد حل الصمت، غمغم والضوء يغمر وجهه:

- الحق أقول لكم لا يهجر الأخ أخاه إلا ويكون قاتله.

نظروا الجنود الأربعة بعضهم بعضا وقبض كل منهم على ساعد الآخر، هزوا قبضاتهم بعزم وقوة وهللوا فرحين، صاح فهد: الحمد الله فقد اهتدينا يا معلم...

* * * *

جاء الليل وساد الظلام وحملت الرياح الزمهرير، جمع مروان و أبو الجاسم الحطب الجاف، أشعل آدم النار أمام المغارة، وذهب فهد يجمع ثمرات الصبار، من أفق الصحراء أطل رجل وامرأة قادمين على ناقة، وقفت البعير أسفل الر ابية، أناخ الرجل بعيره وقام والمرأة على نصب خيمتهم على سفح التل، حول الخيمة كان ثمة صبية وطفلة يلعبون.

من ستارة الأفق تدفق أعداد من أبناء البادية، قدموا في قو افلهم على ظهور الجمال مستهدين بالنيران المشتعلة على قمة الجبل التي أوقدها الجنود الأربعة، في إثرها جاء عدد من العربات؛ لاند روفر، فان، بيك آب، لوريات ضخمة، وعندما حل الليل كشفت النجوم عن معسكرات متفرقة انتشرت على سفح التل؛ أحزاب ومنظمات ثورية عربية تقدمت الصفوف ثم جماعات الدفاع عن حقوق الإنسان، لجان الدفاع عن المدعو بالآخر، ومن خلفهم جاء هنود، صينيون، قساوسة ومشايخ ودراويش، شيعة وسنة ملاحدة علمانيين، ملل ونحل مختلفة، نساء وعجائز أطفال، يتجمعون ويقيمون خيامهم أسفل التل...

* * * *

في الليل جعلته حبيبة وليلى ينام على بطنه، وشرعتا في تطهير جروحه المدماة دون جدوى، وهو يكتم آلامه بينما مصطفي يحضر الطعام ولفائف الدواء، سأله مصطفى:

- متأكد أن هذا المكان مناسب؟

- تخشى على؟

- شُل تفكيرى وصرت عاجز عن معرفة ما يتعين عمله.

- الشرف، أمض في حياتك بشرف، علموا أولادكم الشرف حتى لا يتوهوا في دهاليز الالتباسات.

- صار الشرف أشد قسوة من القبض على الجمر.

- الشرف أو الخيانة... لبس ثمة وسط... علموا أبنائكم الشرف حتى لا يتوهوا في دهاليز الالتباسات.

* * * *

في آخر الليل قبل أن يرحل ثلاثتهم عائدين إلى مخيم الصليب الأحمر، جمع مصطفي شجاعته وهمس: أين تريدنى أن أحفر قبرك.

سمعه ثلاثتهم يقول: موتى لم تنتهي شعائره؟

- كيف يا سيدى؟

سوف تأتى العشائر في قوافلها ترفع الأعلام وتسبقها دقات الطبول، تلعق الغانيات دمى، ويغوص الفرسين والشعبويين بأنيابهم في لحمى، وتقتسم العشائر جثتي، وتكون شاهدى هكذا يتم موتى.

تراجع مصطفي من الرعب وهمس:

- سيدي هذا فظيع، أوليس هناك مهرب من تلك البشاعة...

صرخ مروان: الله في سماه، ما حدا يقرب ناحيته.

صاح أبو الجاسم: عينى... أيش يصير إله ونحن هنا؟

رفع الفتى رأسه وقال: أولم يعلمكم حكامكم بعد؟

قال أدم: لم نكن يوما في بالهم ليعلمونا؟

قال الفتى: فأعلموا أنه لا نهاية للبشاعة طالما كنتم تقبلون بها.

بكت ليلى فأخذتها حبيبة وهمست: دعينا نساعده كي يستطيع الرقاد، هزت رأسها مو افقة، انحنت ليلى وأراحته على صدرها، ضمته برفق: يا حبيبى لماذا تعذبت كل هذا العذاب.

- لكل من قدره، علينا أن نحمل مصرينا بشجاعة.

نظرهم مصطفي وحبيبة فقررا الرحيل، قال مصطفي لليلى وهو يتأهب للرحيل مع حبيبة: سيزار قلق عليك ليتك تمرين عليه عند عودتك.

- سوف أفعل.

في لمسات أخيرة نظفت جسده والرغبة تملئها كي تضمه إليها، نظر إليها بابتسامة حانية، انحنت تقبل صدره وهمست:

- أشعر أنك سوف تخبرنى بأن على ألا أتى هنا مرة ثانية.

- تعلمين الحقيقة.

غمغمت ساخرة: ألا يزور الأحياء موتى أعزاء عليهم؟ ألا يحملون لهم الزهور مكللة بدموع الفراق قبل الرحيل الأخير. أين سيكون قبرك؟

- لن يكون لى قبر، سوف يؤكل جسدى قبل بزوغ فجر الغد.

- مستحيل ما تقول إى فظاعة يا عزيزي؟

- سأكون في قلبك كما كنت دوما، حلم جميل.

- أنت بين يدي لحم ودم.

- هيئ لك، أنا مجرد حلم صاغه خيالك.

انتفضت بغضب: حسنا حلم صنعته بخيالى، ماذا عن مصطفى، حبيبة، سيزار، أبو كريم، إلياس المقتول، كل هؤلاء يحلمون؟

- كل يحلم حلمه.

مرت نسمة برد قارصة همس: خذيني للداخل.

أعادته إلى مكانه القديم داخل المغارة، كان جسده قد رق وصار ينفذ منه الضوء الباهت للنيران المشتعلة على باب المغارة. قبل أن ترحل ضمته ليلى بحساسية المحبة المفرطة.

جلس أمام النار ثانية مثل ناسك وحوله حواريه؛ بدو وبربر مصريين وشوام، فلسطينيين وعراقيين، بيض وسود وسمر يتقدمهم الجنود الأربعة، وقد تركوا ما في أيدهم وتطلعوا نحوه.

- أنكر اليهود مسيحهم، فغادرهم حاملا رسالته للبشر، الحق أقول لكم أنكرنى حكامكم، وبال الشعوبيين في دمى فأنا الآن ابن الإنسان.

سأل مروان: ومن هو الإنسان يا سيدى؟

- هو التواق أبدا للحرية من ربقة الطغاة.

سأل آدم: وكم من الجرائم ترتكب باسم الحرية.

- ولذا فهو أيها المصرى المحارب في سبيل العدالة.

قال أبو الجاسم: باسم العدالة تسمل عيوننا وتجدع أنوفنا.

- أيها العراقى طوبى للمقاوم أبدا للطغاة، الثائر من أجل انعتاق الروح، من قيود زمن ثارات قريش وحروب العصبية.

غمغم فهد: فماذا عن بلاط النفط يا معلم.

- الحق أقول لكم، باعنى حكامكم ببرميل نفط، كما باع يهوذا مسيحه بقطعة فضة. كذا تقض المضاجع، وتهدم المنازل، ويحل الخراب.

* * * *

- 25 -

على امتداد الصحراء كان شبح القناع المزدوج يطير بسرعة البرق على سماء العراق باتجاه المنطقة المحايدة، وهو يزرع الصحراء على خطوط الشبكية بقضبان اليورانيوم المخصب، قبل أن يتحدا في النهاية، والقناع ذو العقال يصرخ مع كل عقلة يورانيوم مخصب يدفنها في أرض العراق:

"لا حلم خارج حلم الزعيم."

بينما توأمه ذو الوجه الأملس الطحلبى الخضرة والقبعة التكساسية يهلل مع كل عقلة يورانيوم مخصب تختفي في جوف الأرض:

- سموووكي ... ا

- هدايا أمريكية لأطفال العراق

- سمووووكي ...

- هدايا أمريكية من أجل أطفال العرب ...

- سموووووكي ...

- لا أحلام جديدة في الشرق الأوسط...

- سحقا للحالمين...

- لا انبياء من العالم القديم.

- سموووووكي ...

- سموووووكي ...

* * * *

- 26 -

عندما هبطت إلى ساحة المعسكر كان ثمة ضوء في مكتب والدها، توجهت كي تحييه تحية المساء، وربما لتجعله يطمئن على عودتها، عندما فتحت الباب كان ثمة غريب يجلس على مقعد والدها وقد أعطاها ظهره، قررت العودة من حيث جاءت لكنه نادها فعرفته من صوته، قالت بقلق:

- ليفتنانت تفيرنية

- مداموازيل ليلى.

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

استدار إليها كاشفا عن وجهه: أريد أن أطمئن عليك.

- تطمئن على أم أنت هنا لمعرفة أخباره.

- لا أخبار لديه قلت لك إنه مات بالفعل.

صاحت ليلى بأسى وسخط: لماذا... لماذا؟

قام نحوها أمسك بكتفيها: لن يقبل الأمريكان بأحلام جديدة في منطقة الشرق الأوسط...

- لماذا؟

- العالم يعاد تقسيمه على أسس جديدة.

- ليقسموه... ما الفرق؟

- يبغون تنظيفه أولا.

- كيف؟

- ستزال شعوب بأكملها.

- شعبه. معرض للإزالة؟! صرخت تضحك من خلف دموعها.

- ألا تصدقين؟ ألم يسبق وفعلوا؟

- وكيف لى أن أصدق.

- صدقينى ليس لديهم سوى التطويع أو التنظيف.

- ولماذا.

- صعب للغاية، الأفارقة ممكن، لكن العرب، لهم تاريخ يصعب تجاهله، .OK أما الإسرائيليين فيريدون أرض نظيفة خالية من العرب. لهذا سينسفونهم بقنابل نووية نظيفة ولن يبكي العالم على شعوب تقبل أن تضع رأسها تحت المقصلة، شعوب ترى الموت وترحل إليه قوافل وراء قوافل، وهي مغيبة... ولكن لم تعد هذه الأفكار مقبولة الآن، ثمة طرق جديدة.

- مثل قتل الأحلام.

- مثل قتل الأحلام... طرق رخيصة للغاية نظيفة للغاية، وملائمة للبيئة ليس ثمة إشعاعات نووي، ليس ثمة حرب بيولوجية قذرة، لا خسائرتقريبا.

- لهذا يقتلون الأحلام في هذه المنطقة.

ضمها برفق وهمس: سوف ترين.

صرخت بلوعة وهي تدق صدره بكلتا يديها: Dam! Dam Dam...

تنهدت بتعب شديد: أريد أن أغادر، أنا جد متعبة.

- من الأفضل أن لا تفعلى.

- لماذا؟

- يجب أن تدفنى ذكرياتك هنا.

- لن أستطيع أن أدفنها قط

- فقط حاولى.

قالت بلوعة: كيف؟ وأنا رأيت الأحلام تموت حيث يجب أن تنمو وتكبر.

- يا ألهي كم تعذبت... تعالى... تعالى إلى...

أحاط بها بحنو، تراجعت ترفضه والدموع تنهمر من عيونها: اتركنى وحدى.

- انتبهي لن أتركك مع موتى؟

- No.

- يجب أن تنتبهي، هذه الأحلام لم تكن تخصك قط...

- ما الذي تحاول قوله؟

- أنت هنا بمحض الصدفة، أنت هنا في عالم لا تنتمي إليه، عالم لا يخصك.

فكرت ليلى بإمعان: ولكنى أحببته.

- في قلب الصحراء من ذاك الظامئ الذي يعشق السراب.

- لم يكن سراباً... كان الحقيقة الوحيدة في عالم من السراب.

- كم تتعذبين... تعالى إلى... سيمر وقت طويل قبل أن تلتئم جراحك...

لانت واستكانت إليه على مضض، فاجأها صوت خروشات مذياع يشق الصمت، ضوضاء مكبرات هائلة للصوت تجهز للاستخدام تدوى في الفضاء، رفعت رأسها مبتعدة عنه وهي تصرخ:

- ما هذا؟

أخفي تفيرنية وجهها في صدره: جاءوا يأخذونه.

- من هم؟

بعد فترة صمت أجابها: الشيطان.

* * * *

- 27 -

الليل في منتصفه، والقمر محاق، والصحراء يسكن أرجائها السكون، والسماء خيمة من الظلام والكون غارق في ديمومته، خروشة ضجت لها صحراء السكون، حشرجات هائلة تنبهت لها الكائنات النائمة، فتحت جفونها بتثاقل، تطلعت إلى الشيطان الذي هبط المكان بسحره معلنا عن قدومه العاجل، وغمغمت في كسل:

- خلق الله الشيطان ليغوى البشر فما بالنا به.

عادت الحشرجات ثانية، تملأ الفضاء، استيقظ الجنود الأربعة، متوقعين هجومه، زحفوا إلى الأركان، أمتشق كل منهم عكازيه، قفزوا إلى خارج المغارة في عجلة وحمية، يحمون مدخلها بأجسادهم، لكنهم لم يكن ليدركوا على إى هيئة يأتى. صاغوا السمع والانتباه، اخترقوا بعيونهم أستار الظلام يبحثون عن مكامن قدومه، ومنطقة ارتكاز هجومه.

ها هي أضواء بابل الساحرة تضوى في السماء، نقاط خافتة في البداية، ثم ما لبثت أن غمرت الأضواء الباهرة الحافة العلوية لمسرح عملياته بدأ من حافة الأرض لعنان السماء، من جحيم الأرض خرجت أسوار مدينة حصينة، تتقدم جيش الظلام، وقد أتى على هيئة كراديس متراصة من الشياطين بعضها فوق بعض، على هيئة الهجوم.

ضحكات أنثوية خليعة كسرت الصمت، عاد وثمود تكشف عن مكامن فتنتها ومصادر إغوائها، فجأة غمر المكان بالضوء الهائل للجحيم الأصفر، صرخات الجنون تأتى من قاع الجحيم، تلألأ المسرح وضوى بآلاف الانعكاسات الملونة ليكشف عن شاشات ضخمة تملئ الأفق، مضاءة بالألوان الفسفورية الباهرة، على جو انبها بزغت كنبات شيطانى، خيام علقت عليها رايات الجنس الحمراء، حشرجات قانية تختلط بالضحكات الخليعة، ثم شرعت أوركسترا كونية في عزف سيمفونية البطولة لبيتهوفن.

اهتزت الشاشة العملاقة من الإشباع الذاتى، دقت الأوركسترا ضربات القدر الثلاث، تنبئ عن قدومه، كان كل من في الساحة المواجهة للتل مهيأ لاستقباله.

كتل متوالية من الومضات الملونة بأربعة وعشرين مليونا من الألوان الحقيقية، الألوان تترى جميعها، قبل أن تتحد ليبزغ لونه المفضل، لون الطحالب الأخضر، ووجهه الكروى القبيح، ابتسم وهو يدخل المسرح مندفعا قادما من داخل الشاشة إلى المقدمة مدججا بعشرات الفتيات شبه العاريات، يرسل قبلاته في الفضاء وفتاة ترتدى معطفاً جلدى أسود تصرخ: أقدم لكم آخر الشخصيات العظيمة بل أعظم الشخصيات على الإطلاق التي قدمتها لكم حضارة أمريكا، أمريكا. أمريكـا.

سمع الجنود الأربعة تصفيق يأتى من مكان غامض وكأنه قادم فوهة الجحيم. خلعت الفتاة ثيابها مبقية على شر ائط فضية رقيقة: وصرخت بابتسامة شيطانية عريضة وهي تشير إلى الشاشة الفضية فيبزغ عليها أنياب تقطر بالدماء: بعد أن قدمنا لأطفالكم:

... ميكي ودونالد...

ميكي ودونالد ينشقون من الشاشة ويتدحرجون على المسرح... ضحك حاد...

الفتاة تستطرد: دراكولا مصاص الدماء، ماضغ الذباب والذي يستخدم الفئران كعلكة...

من الفضاء يهبط دراكيولا كاشفا عن أنيابه المخثرة بالدم في عربة تجرها كتلة ضخمة من الفئران ...الجماهير تزووم بخوف ثم لا تلبث أن يرتفع تصفيق حاد.

الفتاة تستطرد: وجبات التك آوى وارحل سريعا أو ركلة في مؤخرتك... ضحك من المنطقة المجهولة... والبيتزا المخلوطة بشراب عصير المجارى التي تعشقها سلاحف وفئران. لكم ولأطفالكم

... سلاحف النتجا...

أربع حبال تسقط من سقف على المسرح ينزل دوناتلوا ... تصفيق حاد... مايكل أنجلو... تصفيق حاد...ريفايلوا ... تصفيق حاد... ... ليوناردو... تصفيق حاد... ليوناردوا يصرخ: ما رأيكم في وجبة بيتزا بالمجارى يا رفاق... صخب وتصفيق حاد...

الفتاة تصبح عارية إلا من ورقة توت، تتقدم سعيدة وهي تصرخ بابتسامة كاملة:

- والآن أقدم لكم...... الرجل الماسك.

تعود الفتاة إلى الخلف وتستدير كي تعطيهم ظهرها، تمد يدها إلى وجهها وبقوة تجذب جلدها تخلعه وتستدير لهم ثانية وهي تصرخ بجنون وحبور: إنه أنـا.

تتقدم الفتاة فاتحة ذراعيها على سعتهما وهي تعدوا إلى الأمام وقد تحولت إلى الرجل الماسك ذو الوجه الأخضر وجسدها الأنثوى يتحول إلى جسد رجل يرتدى بذة رجال عصابات شيكاغو...

وهو في طريقه إلى المقدمة، يختفي كل شئ ويبقى وجه القناع المبتسم وهو يهتف: دخلت عقول أطفالكم، حققت أفلامى أعلى الإيرادات، أفلامى الكرتون تعرض في مئات المحطات الفضائية،

تغير فجأة وتحول لفتاة شقراء ترتدى عقال على عباءة تكشف عن عرى مطلق تصرخ وهي تبكي: أيها العرب الأعزاء ... استأمنتموني على أطفالكم. ...Right ... ... من لا يصدقني إذن ومحبتي لكم ولنفطكم تفوق محبة المسيح لخر افه...؟

... تبتسم...

كان الجنود الأربعة لا يزالون يسمعون تصفيق وصرخات وضحكات غامضة تأتى من اللا مكان، عاد الرجل الماسك من جديد بوجهه الأملس الأخضر الطحلبى وأشار لنفسه واستطرد: تصدقونى ؟!!

بسرعة البرق أخرج القناع يده من الشاشة وأطالها بقوة متسارعة إلى حيث أراد أن يشير، بلغ المغارة التي ينام فيها قيس، وصرخ: أم تصدقوا هذا المعتوه؟

بيده الأخرى فتح الماسك إحدى الخيم الموجودة على جانب الشاشة العملاقة فكشف عن فتيات عاريات يلعبن برشاقة حول أعمدة الاستربتيز.

- أم تصدقوا هذا...

ضحك وعاد التصفيق الحاد القادم من منطقة صفراء مجهولة تتصاعد منها ألسنة اللهب.

* * * *

نظر الجنود الأربعة بغضب إلى حيث يأتي التصفيق، وقبل أن يدركوا شيئا صرخ القناع، عاد يخرج يده من الشاشة العملاقة فتستطيل بلا نهاية، مدها حتى لامست المناطق المبتورة من سيقان الجنود الأربعة والأضواء الكاشفة تغمرهم:

- أتصدقون هؤلاء العجزة؟

ضغط على جروحهم بشدة وهو يضحك بجنون قبل أن يعود لصرخته ثانية:

- أم تصدقوا هذا.

كانت يده الثانية تغادر الشاشة الفضية العملاقة ليفتح خيم أخرى تكشف عن جماعات من رجال مفتولي العضلات بيض وسود وصفر يستعرضون كمال أجسامهم.

- تستطيعون أن تستخدمونهم في حماية خزائنكم، حماية أرواحكم.

كشفت خيمة جديدة عما بداخلها فظهر من أمثالهم مدججين بأنواع الأسلحة الحديثة، أشار القناع إليهم واستطرد: تستطيعون أن تستخدمونهم في حماية نفوذكم، انقلاباتكم العسكرية، في حماية عروشكم.

غمر الضوء الباهر ثانية الجنود الأربعة، كان قد حول أصابعه إلى ثمانية مفارم لحمة حديثة، قبضت كل مفرمة على ساق من سيقان الجنود الأربعة، بينما يخرج من فوهاتها لحم سيقانهم مغمور بالدم، ضحك بسعادة سادية وملئت ضحكته الفضاء، رفع يده في الفضاء

فتدلى الجنود الأربعة فهد ومروان وآدم و أبو الجاسم من سيقانهم المبتورة يجدفون في الفضاء بلا حيلة، ضحك بجنون قبل أن يعود لصرخته ثانية وهو يفتح خيمة مظلمة:

- أم تصدقوا هذا The best guys in the net ...

في هذه المرة كشفت خيمة حمراء جدية عن فتية ورجال عرابا مفتولي العضلات...

صرخ: تستخدمونهم في كل شيء يحقق لكم المتعة،

Positive or negative...wooo

عاد ليصرخ ثانية وسط دقات وعزف الموسيقى: أنا القناع، أنا حضارة الواقع... قرب المغارات تنبت الأوهام دائما، الآن انتهت الأحلام، حرية الجنس وصوت طائرات الشبح وذكورة الصواريخ العابرة للقارات، وخط الدفاع الصاروخي الذكي المكون من الجينات الأنثوية المضادة لذكورة الصواريخ عابرة القارات، عودة الحرب الباردة، القضاء على الدول المنبوذة... فقط أمريكا... أمريكا... أمريكا... هذه هي الحقائق الوحيدة في عالم القرن الواحد والعشرين القادم، عالم القرن الأمريكي.

على سفح التل وفي مخيم الصليب الأحمر خرجت النساء والرجال والأطفال والعجائز، الأطباء والممرضات وقد تحولوا لكائنات هشة صغيرة إزاء الصور المجسمة العملاقة يتابعونها بدهشة وهي تتوالى في فضاء شاشات التليفزيون العملاقة ومخيمات الجنس الحمراء.

أمعن قيس النظر إلى الفراغ، صعد قليلا عن الأرض، صرخ الجنود: هل سترحل يا معلم؟

- حان ظل الوقت.

* * * *

على السفح ثمة امرأتان بدويتان تحلب الماعز، أسرتان بوذيتان توقدا النار، عشائر القبائل تعكف على تناول الخبز والملح.

في الأفق أعداد قليلة من الأفارقة والمصريين، عرب يغطون رؤوسهم بعقالاتهم، يابانيين وهندوس، طائرة من محرك واحد تعبر في الساحة تهبط في امتداد الصحراء، شابين وفتاتين أوربيين يهبطون من الطائرة، يتجهون أسفل التل حيث تختلط الملابس البوذية والعربية والماليزية والأفريقية والأوربية بعضها البعض، تجتمع أعداد من عربات الجيب من جميع الأنواع، دراجات بخارية، سيارات كامب، ميني فان، أقوام من مختلف الأجناس، كوريين، إيرانيين، روس، ماليزيين، هنود حمر عراة على رؤوسهم الريش، قوزاق، منغوليين، زنوج، آريين، أسبان، نساء ورجال لاتينيون من تشيلى وبوليفا والبيرو وكوبا. وبينهم كان ثمة أطفال بيض وسود وسمر وصفر يلعبون مع بعضهم في الأنحاء.

* * * *

فجأة أضيئت الشاشات العملاقة، أطل القناع ينظر بقلق إلى القوافل القادمة من كل الأنحاء، حشرجات الميكرفون، صراخ هائل في الصحراء، يتحدث القناع:

- انظروا إلى أنا. أحدث نموذج قدمته الحضارة الأمريكية، أنا القناع المتحول، أبن فيض الإلكترونات، البروفة الأولى للشبح الذي سيبزغ من قلب الذرة، أنا الحقائق المادية، لماذا نعود للأحلام؟ لو أن هناك فشل في بعض الأجهزة أو عجز في شبكات الاتصال فسنسارع من عمليات التطوير الفائقة، لتعديل المفاهيم الثقافية والمادية وتطوير النموذج الجمالى السوبر، لن نكتفي بمارلين مونرو وحيدة بل عشرات النماذج المعدلة التي تعدل مع كل الرغبات المتنوعة لكل مستخدم

على حده، لن تفرض نماذج للحياة من قبل المؤسسات الكبرى، ولكننا قريبا سنطرح من ميديا سوفت النماذج الذكية ذاتية التعديل، لن نفرط في فردانية العصر الذهبى للفرد، عصر من الديمقراطية الذهبية حيث ملايين النماذج الجسدية التي تناسب الفردانية الجديدة، سندشن إلى المطلق عصر الحرية الفردية ليكون في مقدور أى إنسان على ظهر الأرض أن يحصل ويحتذى النموذج الأمريكي في الحياة...

انفرط القناع إلى عشرات الفتيات والفتية من جميع الأجناس شقر، سمر، صفرا، سود، لاتينيون، يستعرضن أنوثتهم وذكورتهم في ملابس البحر العارية وهم يرقصون على دقات الطبول البدائية وسط الأمواج.

كشفت الشاشة العملاقة عن ملايين المشاهدين، نسخ مكررة من البشر، يصرخون بفرح، أطل القناع عليهم وهتف بإقناع: أنا ومعاوني سنعكف على الكشف عن الدجل الكامن في ظاهرة الحلم المدعاة بقيس هذا. أن العالم وخاصة الأمريكان ليسوا على استعداد لأحلام أخرى تبعث من جديد في منطقة الشرق الأوسط، وأن أسوأ الأحلام هو ما يسمى بالبعث بعد الموت. فهذا العالم قد شاخ ويجب أن يموت موتا.

رفع يده وصرخ للمشاهدين:

- هل نحن في حاجة لأنبياء جدد ...

جاءت أصوات الرفض من الراقصين والراقصات، تؤيدها أصوات التأييد من الفوهة الصفراء: لا...لآ...لآ

- هل نحن في حاجة لحالمين من طراز أرنستو تشى جيفارا.

- لالا... لالا... لالا

- موسى عيسى محمد (فينشد Finished)... أنتهي... أنتهي أعزاءي، انظروا إلى هنا.

أخرج القناع رأسه من الشاشة المستحدثة، يبحث عن كمبيوتر، أمسك حفنة من الرمال، حولها بسهولة لجهاز من الكمبيوتر، الشاشة تختفي ويجلس هو على الجهاز:

- خطوات بسيطة على الإنترنت، مو اقع لا نهاية لها للجنس الساخن الناعم والخشن، كل أنواع الجنس بقروش قليلة يا بلاش، لم نعد في حاجة إلى فرويد، لآن سواءك أو شذوذك موجود ومتحقق، برجريت، ماجى، بامبيلا أندرسن، ديبى مور، قصص مصورة، شاتنج، جون ومارى، كاتى وجين...

قفز الماسك إلى الساحة الو اقعة أسفل تلة المغارة التي يقيم بها قيس يوزع على الجالسين بضاعته، والجميع يلتف حوله، جهاز كمبيوتر وقرص لشبكة الإنترنت لكل شخص ، يغمغم: أعرف أن للإنترنت فو ائد جمة، لكنه له في الشرق الأوسط فائدة إضافية... هاها...هاها... ها... جميعهم لا يرونه، الكل مستغرق في فحص ومتابعة أجهزة الكمبيوتر.

قيس: الحق أقول لكم، لم يعتق الإنسان من حيو انيته كي يكون عبدا لتخيلات مريضة، و إنما صار إنساناً لأجل المودة وفضل رحمة.

أحد الرحال الماليزيين يؤذن في البرية آذان المغرب.

قيس: الحق أقول لكم لم يولد الإنسان كي يكون وحيدا...

صوت أجراس الكنائس تقرع في البرية...

... في قلوبكم تجدون شرا فانزعوه، وفي قلوبكم تجدون خيرا فاجعلوه يثمر.

... الحق أقول لكم لقد استحلكم حكامكم استحلوا أعراضكم وأولادكم، وأحلامكم. فحان زمن المقاومة أو الطوفان. ومن لم يقاوم فللسيل القادم هو ضحية.

... يا معشر العرب أنا حلمكم الذي بعتوه بقطعة فضة... أنا ابنكم الذي اغتصبتموه... أنا البريء منكم يا صهاينة هذا الزمان إلى يوم يدفع كل امرئ دينه... الحق أقول لكم، لقد أنكرتمونى قبل أن ينكرنى حكامكم.

بسرعة الضوء صعد القناع للفضاء يقهقه، وقد جعل من قبضته رأس أخر ذو قناع أخضر جديد، صار ذو وجهين، مخفيا وراءه قيس، صرخ: بالضبط حكامهم... حكامهم هم أصدقائى الأعزاء... نحن جميعا، أنا وهم مؤتمنون عليكم، و أيضا لكم الحرية كل الحرية أن تفعلوا ما ترغبون. ونحن أيضا أنا وحكامهم لنا الحرية في أن نفعل ما نرغب. بعد قليل ستسافر الطائرة بنا جميعا إلى مدريد ليوقعوا نهاياتكم.

نظر إلى طفل وسأله: أليس الجنس أهم شيء في الوجود، لكن ممنوع عليك لأنك أصغر من ثماني عشر سنة... يجب حماية الطفولة، لدينا أخلاق بالطبع

عاد القناع لشاشته الضخمة، تتحول إلى عدد من الشاشات الضخمة، القناع في بزة عسكرية أمريكية تنم عن طغيان القوة العسكرية الأمريكية يصرخ:

- لن تكون هناك أحلام ثانية، لن يكون هناك أنبياء يصعدون من هذه المنطقة إلى السماء، أنتهي العصر القديم، انتهت ثقافة البحر المتوسط، فقط هي ثقافة العصر الجديد... أمريكا... أمريكا... أمريكا...

* * * *

الشمس تشرق من جديد، من الجهات الأربع يتو افد البشر المحبين لكل ما هو إنسانى، يجتمعون في المنطقة التي يعيش فيها قيس يمارس طقوس الحلم، وقد تواعدوا كي يعبروا القرن الجديد دفاعا عن حلم

البشرية في كل ما هو إنساني، فرق الموسيقى تأخذ مو اقعها على مسرح الحياة تشرع في الغناء.

صرخ القناع: غنوا كيفما شئتم، يموت ويرحل إلى السماء وتنسون كل شيء... انظروا أنا وحكامهم أصدقاء. والآن أرسل لكم الشعوبيين حان سلاحي الأخير...

من بعيد ثمة جماعات تأتي على عجل، لهاثهم يقطع الصمت بثقل طاغ، كانت الرؤية تتضح شيئا فشيئا، وملامحهم تتضح، أحزاب كانت ثورية ثم تحولت لخادمات رخيصة في مطابخ السلطة، عملاء لأمن النظام، جمعيات ممولة من منظمات تختفي وراءها أجهزة مخابرات دولية، لجان جمعت بقايا نساك، قادتها يمولون من ذات اليمين وذات اليمين. جماعات تسبقها أعلام ملونة بألوان زائفة بينما الأصفر لون الذهب سيدا مطاع.

تختفي الأضواء... يسود الصمت المكان، يعود صوت الليل ويعود للصحراء لون سمائها...

أشعة السحر تتسلل، مصطفي يدفع حبيبة جانبا، استيقظت وبقيت تصطنع النوم، تابعته يقف مسرعا، يرتدي ملابسه، تعرف أنه ينوي الخروج، سألته بقلق: أين تذهب؟

غمغم مصطفى: إليه.

- انتظر حتى الصباح؟

- حان موعد موته.

همست: كيف؟

لم يجبها وغادر الغرفة، صعد مسرعا إلى أعلى التل حيث المغارة. قامت ترتدي ملابسها على عجل، نادت أبو كريم، سألته أن يعدو معها وراء مصطفي الذي جن.

* * * *

سارا في صحراء تجمع على ذوائبها شياطين الالتباسات، وهناك أمام المغارة حيث تنتظم شعائر القتل والاغتصاب؛ عوت دقات الطبول بثقل طاغ، والجميع يرقص حول فوهة النار المتصاعد من الجحيم، تقدم قادة العشائر يرقصون، وخلفهم جموع الفرسيين الشعبويين، أحزاب خانت طبقاتها وقادة قايضت شرفها لحساب القابضين على السلطة بالحديد والنار، وأحزاب صنعت لملء الفراغ في اليمن واليسار، وتلك التي قدمت نفسها للعمل للعمل في مطبخ السلطان وفي فراشه إذ عز وجود العاهرات، تتقدمها قياداتها التاريخية التي احترفت الهزائم تنز من وجوهها دهن الشيخوخة العطن، ولقاحات مضادة للخجل، خاطوا كراسيهم في أردافهم، يفوح منها رائحة العطن، وهي تتوكأ على الخط الفاصل بين الحياة والموت، دون أن تموت قط، بعد أن اكتشفت إكسير الحياة الذي يطيل حياة الموتى مفضلين امتصاص دماء أطفالنا على الرحيل أو الانتحار بشرف.

أولئك المرفلين بسعادة راحة الضمير الذي أخفي جيدا في جب المبررات العميقة، وقاموس الالتباسات الذي بزت به العربية جميع اللغات، ثم جاء المرضى النفسيين، الذين يعشقون ذواتهم فوق الشرف والوطن.

شاهدهم مصطفي يرقصون بصخب حول مذابحهم الحجرية القديمة الملطخة بدماء الأضاحى البشرية، يحرقون الحروف والكلمات.

تلمس طريقه إلى الداخل وسط جثث الجنود الأربعة الملطخة بالدماء، وقد شوهت الأطراف التي سبق بترها، تحامل على نفسه كي لا يقيئ، تقدم إلى داخل المغارة متحاملا على نفسه حيث شاهد أشباحهم عاكفين بين النشوة والشهوة على تناول أشلاء الفتى بأنياب حادة

تقطر منها الدماء، وقد لطخ وجوههم لحمه المنزوع عن عظامه، ولوثت أفواههم دمه الطفولى وقد تحول إلى قطع من بقايا لحم وعظام ودم متخثر لوثت به جدران المغارة.

دار حول نفسه كالمجنون، تطارده وجوه القتلة فلما انتهى طقس الغوط في دمه قام المهرجون الذين سكنوا تلك الأحزاب وقادوها إلى طرقات الخيانة بخلع ملابسهم الزاهية الألوان يتقدمهم زعيم الشياطين، ضئيل البنية وهو يضحك بفرح وجنون بالتبول على جثته يحدوه الطرب والسرور... وهو يصرخ:

سحقنا أحلامهم فأسعد سيدنا قتلتا الطفولة ليطول عمرك، وأسعد أيها الشيطان الأعظم، وليطول عمرك إلى سدة العرش...

سقط مصطفي من الرعب، لم يبق في أعصابه سوى القدرة على الزحف بآلية محاولة الكائنات الحية النجاة من الموت، وعندما بلغ الفوهة جرى يغادر المغارة كالمجنون إلى نقاء الصحراء...

* * * *

مد الرجل الماسك رأسه طويلا إلى جوف المغارة وهو يصرخ:

- هاللويا... هاللويا... هاللويا... هاللويا... مات الحلم في الأرض المحايدة وسط الالتباسات.

سنقتسم جسده على مائدة حكامهم، هكذا لم يعد هناك أحلام. سأخذ معى قطع من جثته، وبعضاً من بقايا دماءه نخلطها بالنبيذ لنتقاسمه جميعا على العشاء.

- هاللويا... هاللويا... هاللويا... هاللويا... إلى مدريد حيث نلتقى جميعا في العاصمة التي فتحها العرب قديما.

- هاللويا... هاللويا... هاللويا... هاللويا... يسعدنى أن أذكركم :

موسى فبنشد... عيسى فبنشد ... محمد فبنشد... أما جيفارا فقد حفظ في ملفات C.I.A.... فقط أمريكا... أمريــكا... أمريـــكا...

* * * *

- 28 -

كان مصطفي ممددا غائبا عن الوعي في صحراء من الغبار والرياح والعواصف، تحيط به أشباح الظلام... تدور مقلتيه في عينيه، تحمل نظرات الزيغ المجنون، امتدت يد ناعمة إليه، أدار رأسه يرتعد من الخوف وهو يزحف مبتعدا إلى الوراء، ويصرخ من الرعب:

- ابتعدوا عنى لا تمتصوا دمى...

أعادته إليها بلطف، نظر إلى الوجه الذي انحنى نحوه ثم انفجر بالبكاء. همست:

- أين هو؟

لم يجيبها، كان يبحث عن مكان لندوب مصاصى الدماء، سألها وهو يرتعد ويشير إلى عنقه وصدره: أبحثى هنا أو هنا عن أثار لندوب دموية.

هزت رأسها نفيا وعادت تسأله: أين هو؟

- اختفي لم يعد موجودا.

- فلماذا أنت منهار هكذا؟

- أكلوا لحمه. لعقوا كل قطرة من دماءه. كان جميعهم يمارسون شعيرة أخوة الدم في العشائر القديمة.

- ألا يرضيك هذا؟

- ما هذا الذي يرضيني؟

قالت تخفف عنه: أنهم على الأقل يعترفون بأخوته؟

- الغوص بالمخالب والأظلاف والحو افر في دمه، تلطيخ الوجوه الهرمة تنشد من دمه الخلود.

- هكذا كانت طقوس القبائل القديمة.

- كان هناك آخرين، ذئاب مفترسة تلعق بألسنتهم الحمراء، أفاعي وعقارب تنفث سمومها في الفضاء، عناكب تلتف على خلايا العقل، بكتريا سامة تجرى في الأفواه والألسنة...

- هكذا كانوا يتحدون بجسد الإله، تناول قطعة من جسده الطوطم طلبا للتأرله.

- لالا لا... لا لم يكن الأمر هكذا .

- ماذا كان إذن؟

- على العكس كانوا يطلبون الاتحاد به درأ لذواتهم المغتصبة...

- إنه إحلال الوقائع.

سرت القشعريرة في جسده، خرج العواء من جوفه عميقا وهو ينتفض من الرعب، كانه ينظر رؤيا في الفضاء سألته: مصطفي ماذا ترى.

همس وهو يبكي: أنهم يشاركون في طقوس...

مدت أناملها تمسح دموعه: أي طقوس؟

طقوس اغتصابه... ربما هكذا كانوا يدرؤون اغتصابهم.

تراجعت حبيبة وعلى وجهها خوف واضطراب شديدين، صرخت بيأس:

- أبو كريم... دعنا نعود به للمخيم.

اضطرب اضطرابا شديد، وقام يرفض المثول بالعودة، سمعته يهذر:

- لقد وعدته وعلى أن أنفذ وعدى له.

- بماذا وعدته؟

- أن أكون من تلاميذه.

- و أنا معك.

- نستكمل دعوته في جوف الصحراء.

- بماذا ننادى في الناس.

تطلع لها مندهشا وكأنه لم يفكر في ذلك من قبل، بعد وهلة رفع رأسه وقال نداءه في فضاء لا ينتهي:

- "أيها الدود الساكن في الأرض، أرفعوا رؤوسكم ودافعوا عن أطفالكم".

قام منهاريتوكأ عليها، أقترب منهم أبو كريم متسائلا:

- هل يسمح الطريق لاصطحاب تلميذ ثالث؟

هز مصطفي رأسه متقدما للأمام يردد:

- الشرف أو الخيانة حتى لا تتوهوا في دهاليز الالتباسات. علموا أولادكم الشرف، ليس ثمة طريق وسط.

كانت الشمس في حد الأفق عندما رأت ثلاثة أشباح تتوغل داخل الصحراء باتجاه الغرب.

* * * *

الشمس تشرق من الأفق، كل شيء يختفى، بينما فتاة صغيرة في سن السادسة عشر ورجلين أحدهما عجوز من جماعات الصليب الأحمر يبحثون عن جرحى وسط أشلاء قتلى حرب الخليج. تلمح الفتاة بتعجب حركة عابرة تتوقف على الفور، تقترب من الجسد المسجى تصيح بهلع:

- كلام ... كلام ... كلام، نادى القاعدة وأطلب المساعدة.

تنحنى على الجسد الفتى تحدق في وجهه مفتونة:

- OH MY GOD WHAT ABUTY ، هل هبط المسيح في بابل الملعونة؟

غمم الشاب الفرنسى الو اقف خلفها:

- أترين... كل شيء هنا مجرد أحلام...

أضغاث أحلام...

أوهام... مجرد أوهام...

تمت

إهداء

ذات صباح من شهر نوفمبر عام 2000، استيقظت ذات لأجدني أنظر الدنيا من ثقب صغير، لقد أصيبت شبكية عيني اليسرى بقطع، وبدأت لحظتها رحلة مع الطب المصري وهمومه، وبعد إجراء عملية جراحية خطيرة وحدث أن هبطت الرؤية في عيني اليمني بشكل حاد، وأصبحت أري من خلال عين معبأة بالضباب.

في هذه الفترة اعتورتني الدنيا، في وقت لم أكن قادرا فيه لا على القراءة أو الكتابة أو النظر إلى شاشة كمبيوتر.

في هذا الظلام الكابي أشرقت في حياتي شموع خلابة.

ولداي عمر وجاسر اللذان قدما الدعم النفسي والمساندة الفعلية - ولم يتعديا الخامسة عشرة والرابعة عشر من العمر- لرجل ينظر الدنيا بعيون كلت وقلب شاخ وعزيمة وهنت، وقد استحله عدد من أقرب الناس والأصدقاء، لكنهما أحاطاني بالرعاية وقاداني الطرقان، بهما وبتشجيعهما المتواصل؛ تمكنت من تجاوز المحنة، والانكباب ثانية على الكتابة...

إليهما وإلى عذوبتهما وابتسامتهما وتشجيعهما، المتواصل الذي خفف عني الكآبة.

فتحي إمبابي

يستمر الكاتب والروائى فتحى إمبابى فى الاشتباك مع عالمنا المنهار، فنعيش فى رواياته كابوس تقويض المجتمع العربى وهلاوسه، كابوس يعلن لنا بلا مواربة عن مستقبل مُحمل بالتعاسة والشقاء، تتسع فيه المسافة بين حلم الأمة الذى لامس السماء يوماً، وبين قسوة التمزق، لا يبدو فى الأفق مكان للتوقف، أو نتوء نتعلق به من عمق الهاوية.

وتترى الأسئلة بين ماذا يحدث على هذه الشاكلة المخيفة؟ أسئلة واجهناها فى رواياته الثلاث السابقة، العرس، نهر السماء ومراعى القتل.

ويأتى عمله الرابع «أقنعة الصحراء» - وعالمها معسكر للصليب الأحمر فى المنطقة المحايدة إبان حرب الخليج - ليس بحثاً عن إجابات حيث تتعذر الإجابات، ولكن عن أقنعة الجريمة التى حيكت خيوطها ببراعة تراجيدية بين القوى العظمى والنظام العربى الرخيص.

من الذى هُزم؟. هل هو النظام العراقى؟ ..

هل هو النظام العربى؟

من القتلة؟ ومن القتيل؟

فى تلك الحرب ثمة أعلام ورايات مُزقت.

ثمة آمال وأحلام دفنها الموت.

ثمة شرف تعيس جرت خيانته.



الغلاف: أحمد